حضور بلون الماء
مجموعة قصصية
وقاص الصادق الشفيع

إهداء

إلى أمي ..
فاطمة بت عبد الجليل

حضور بلون الماء

مجموعة قصصية

وقاص الصادق عبد الجبار الشفيع

غنصاية آسيا..

حضور بلون الماء.. الغياب هو التعكر الجميل

الضحى، ذلك الوقت القابع بين استقرار الصباح وعزوف الشمس عن حنينها، ظل الصباح المرتمي على الرمل، أمن الشمس تأتي الظلال أم على يديها تموت؟ ذلك الوقت المتخفي بين لهفة الناس وإسراعهم إلى أعمالهم، عندما يصلون إلى أماكن عملهم ثم ينامون مرة أخرى، ذلك الوقت الذى يجهل عنده طفل المدرسة شكل دارهم فيه؛ لفرط الدوام اليومي، ذلك الوقت الذى تسمع فيه مزيجاً من كلام الناس وصوت الوابور الزراعي وغثاء الأغنام وحفيف الأشجار وصافرة قطار الشرق ورائحة الخبز والفول وصوت المذياع البعيد، كل هذه الأصوات تأتيك مختلطة بلا تناغم، أيتسع الصباح لكل هذا؟!

ارتفعت شمس الضحى الباردة وتفقدت سطحاً فلم تر جديداً، فطفقت في صمت ترتب حاجاتها لا تنتبه لأحد ولا

أحد ينتبه لها، خفت حركة القرية وسكنت طرقاتها، هدوء لم تفهمه غنماية آسيا إلا لما رأت باب الزريبة قد تُرك مفتوحاً، فكرت قليلاً ثم استدركت قائلة:

"الحمد لله الذى لم يجعل لي عقلاً لأفكر به، الباب مفتوح ولا وقت لدراسة الاحتمالات الكثيرة، لابد من أشياء كثيرة خلف هذا الباب، فالعالم الواسع كله يقطن خلف هذا الباب الضيق، إنها الخطوة من الاستعباد إلى الحرية، الفرصة التي لا تأتي كثيراً، فبين هذه الجدران لا أستطيع فعل شيء، لن أعبّر عن نفسي كما أريد، لابد من الخروج لابد أن أرى ما لم تره الأغنام الأُخريات، لابد أن آخذ فرصتي من الحرية".. لم يدر شيء من هذا فى رأس الغنماية فهي لم تر إلا طريقاً مفتوحاً فسلكته لكنها لما خرجت استطاعت ورغم أن ليس لها عقلاً أن تفهم شيئاً ما.

قبل ذلك الصباح بيوم استيقظت القرية عقب هطول أمطار غزيرة، داعبت خيال الأطفال وهشاشة الراكوبة، وخلفت بقعاً من المياه فى شوارع القرية منذرة بخريف غزير، وازدادت البهجة لما كان شهر رمضان على الأبواب، فرمضان في فصل الخريف أيسر صياماً، فاستبشر الجميع خيراً بكل

هذا.

فى البيت الكبير –أى بيت جدي– وبينما كنا مجموعة صبيان نجلس فى الصالون، نتآنس ونؤانس جدنا، أمسك أحد الصبية بصحيفة حوت كل أخبار القيل والقال فى البلاد، وأخذ يقرأ ويضحك، ومدثر يطالع فى كتاب ما بعد الحداثة، ولم يكن قلبه مشغول إلا بتوقع صينية الفطور التى سرعان ما جاءت بها خالتي، هنا توحد تفكيرنا ورغباتنا لهفة لذلك الإناء المدور وما حوى.

تكفل ما تبقى من سحاب البارحة بشمس اليوم وحجب عنا شعاعها ليعوضنا يوماً ربيعياً هبت نسائمه العليلة فداعبت خواطرنا، قال أحد الصبية: "الجو دا ما داير إلا ضبيحة بس.."، فقال آخر: "جية الخريف دى دايره ضبيحة وجية رمضان دايره ضبيحة"، فقال آخر: "ونحنا دايرين ضبيحة" وهكذا دون كثير جدال اتفقنا على أن نشتري غنماية ونذبحها فى الغد.

جاء الغد، استيقظت على رائحة شواء ستكون فى آخر اليوم، فغداً رمضان والناس منهمكون فى استعدادهم له بتنظيف البيوت وإعادة تنظيمها، فالأسرة والكراسي والسجاد

والطاولات قد وضعت في فناءات المنازل تحت الشمس، كما الملابس على حبل الغسيل، وأصبح المنزل كعظم سلب عنه اللحم، وحتى عندما خرجت للشارع وجدته منهمكاً فى الاستعداد لاستقبال رمضان، الفتيات يكنسن السوح الممتدة خارج منازلهن، وعبارة رمضان كريم قد رسمت أحرفها بعناية على الأبواب والجدر وشعت بشاشة على وجوه الناس.

التقيت برفاقي فى بيت جدي لنقرر ماذا سنشتري، وبالنسبة للمبلغ الذي نملكه فلم تكن الخيارات كثيرة فإما غنماية خالتي آسيا أو واحدة من غنم حاج أحمد بعد إقناعه بتخفيض السعر، ثم استقر الرأي على غنماية آسيا لكونها الوحيدة الممكنة لقاء مالنا القليل، وبينما نحن نقلب الرأي الذي بدأ يختمر، ظهرت خالتي آسيا مهرولة كعادتها، بيد أنها ابتكرت سبباً لهرولتها هذه المرة بأن قالت: "غنمايتي راحت"، فدهمنا الخبر ولسان بؤسنا يقول: "كل هذا الزمن والغنماية لم تفارق الزريبة، ما لقت تروح إلا لمن قررنا نشتريها"، هنا جلست ثم سكنت قليلاً "هل ضاعت الغنماية حقاً، أم غفت على زمن تحلم فيه بأشيائها الضائعة".

قالت آسيا: "إذا لقيتوها شيلوها واضبحوها وبعد داك بنتفق على القروش"، هنا استعنا على الشقا بالله، ثم بدأنا رحلتنا غير معلومة النهاية في البحث عن غنماية آسيا.

غنماية آسيا –ومنذ أن خرجت من الزريبة– لم تستقر على فكرة عن واقعها الجديد، كان من المفترض أن يؤانسها الواقع ويحمل عنها ثقلاً حتى تمارس دورها فى المفارقات الحضارية – كغنماية قد رقيت إلى الحرية– لكنها مازالت مشدوهة بعالم غريب تكاثف فيه العمران وتصاعدت الأبخرة من أشياء ضخمة تسير على أقدام مدورة من البلاستيك، وضوضاء مستمرة وغنيمات مثلها من المفروض أنهن أحرار كذلك، لكن بؤساً عظيماً وأسئلة حائرة كانت تطل من أعينهن، ارتبكت قليلاً، ثم توجهت نحو الجدار واحتكت به تسأله سقفاً يأويها من أشعة الشمس، لكن ورغم كل هذا الإحباط لم يفل ذلك من عزيمتها، فالأرض لا زالت تختزن بعض الرطوبة وقلبها لا زال يضج بما تبقى من بهجة الانتصار باستعادة الحرية.

أخذت غنماية آسيا تطوف بأزقة القرية ببطء وتمهل، نظراتها حبلى بالشوق لاستشراف عوالم جديدة، رأت منازل

مثل الزريبة التي كانت تقطن فيها، فشغلها سؤال: "هل أصحابها محبوسون أيضاً كحالها قبل التحرر؟"، ثم رأت أنهم يطوفون الشوارع مثلها فقالت: "أولئک مثلي خرجوا بحثاً عن الحرية"، ثم رأت أبواباً مشرعة فعرفت أنهم يخرجون ويدخلون متى يشاؤون، سمعت صوت غنيمات مثلها يأتي من خلف جدار زريبة مجاورة، فردت عليهن بغثاء مغرور مشحون بالفخر والتيه والتميز عليهن وأخذت تمشي كطاؤوس.

وادٍ رملى كبير، يشقه شريط أزرق تتحرك عليه أشياء غريبة عليها، بقالة كبيرة يدخل إليها الناس ويخرجون يحملون أكياساً كبيرة، دخلت وما لبست إلا ريثما خرجت فزعة مهرولة وخلفها رجل يرميها بحجارة، لم تشعر أنها أخطأت، لكنها عنطزة البشر وغرورهم وحبهم الاستحواذ على الأشياء والمساحات، رأت أرضاً خضراء ممتدة فتهلل وجهها، أخيراً وجدت ما تريد من الطعام، أخيراً وجدت ثمرة ومعنى حقيقيًّا للحرية، ثم اتجهت مهرولة نحو الحقل الأخضر، ظهر لها فجأة وجه مفزع يطل من فوق عصاتين (همبول)، ارتعبت قليلاً لكنها لاحظت أن الوجه ثابت لا

يتحرك، انتظرت للحظات تحدق فيه، فظل ساكناً سكوناً بليداً، فواصلت مسيرها بحذر وما إن دخلت الحقل إلا ونسيت كل تاريخ المطاردة والوجه الساكن وانهمكت مع الأكل الأخضر اللذيذ، وماهي إلا لحظات حتى وجدت نفسها مهرولة تلقى عليها الحجارة من عدة اتجاهات حتى تورم جسدها، بعد أن تجاوزت بصعوبة متناهية مرمى حجارة أصحاب الخضرة الممتدة، وأرادت أن تلتقط أنفاسها فرآها بعض الفتية وركضوا خلفها، ثم بدأوا يرمونها بالحجارة مرة أخرى، هنا اختلت موازينها المفاهيمية، ليس هذا ما كانت تحلم به عندما خرجت من الزريبة، وهنا لم تعد متأكدة هل هي حرة أم ضائعة، وهكذا بدأ الوهن يدب في عزيمتها، وبدأت ثقتها بنفسها تهتز تدريجياً، حتى تملكها يقين صارم بأنها ليست حرة بل تائهة منهكة تبحث عن مأواها.

وبنفس عزيمتها المنهكة كنا نحن كذلك نبحث عنها، ولا يحدونا كبير أمل فى أن نجدها، وجبة لحم لذيذة ورائحة شواء جاذبة و"كرامة وسلامة"، هكذا نراها نحن، "الغنماية الآن ضائعة"، ترى هل تلقت وحياً من الغيب جعلها تحدث نفسها بالهرب أم سطا عليها لص لا يأبه بأخذ جهد الناس

وأملاكهم حين غفلة، ليس هذا هو المهم، هل نبحث عنها لنعيدها لمأواها ثم نذبحها، هل نبحث عنها للحضور ثم نسلمها للغياب؟!

جحظت الشمس وشاب ضوؤها وأخرجت خيطاً ذهبياً جميلاً كانت تدخره لهذا الوقت، كنا فى أول الشارع وكانت الغنماية تقف يائسة فى طرفه الآخر، وقع نظرها علينا، فتهلل قلبها وتهللت وجوهنا، وبالخيبتها المنتظرة، فهي رأت تهلل وجوهنا ولم تر ما تكنه القلوب، ونحن لم نر الفرحة المؤقتة التي ملآت قلبها لتقودها طائعة إلى الزريبة، لكنه حضور يستبطن الغياب، لم تدر غنماية آسيا أن غيابها كان حضوراً وأن حضورها الآن هو الغياب الأبدي.

مسح جدي يديه ووجهه ثم تنحنح وقال: "كرامة وسلامة"، اجتمع الحاضرون على صحن الحساء يمسكون بالخبز الخارج لتوه من أتون الفرن وأخذوا يأكلون، والشواية مقلوبة بعد أن أحيل اللحم إلى أمعاء الحضور، لم نمهل الغنماية وقتاً للتفكير فى انحناءاتها الحضارية، وبقدر ما أمهلناها من وقت قبل ذبحها لعلها كانت خلاله تتمتم بحمد الله أن لم يجعل لها عقلاً تفكر به، ومع ذلک وبعد أن ثبتها الرجل

ووضع حد السكين على رقبتها كانت قد توصلت لحكمة هي خلاصة كل ما مرت به، ولكن لم يمهلها الزمن لتفصح عنها فاحتفظت بها لنفسها ثم غابت.

هل حلم «أبو الزنان» بالحرية مرة أخرى بعد وقوعه فى أيدينا!

استقرت الشمس فى الركن الغربي الأعلى للسماء، ثم نشرت شعاعها بحنان، هدوء كان يطمئن القرية أو القرية هي التى كانت تطمئن الهدوء وتقسم عليه بأن يقيم، حُب كان يخيم بين العصافير والأشجار، صوت الوابور الزراعي من أقصى شرق القرية، حين أفكر للحظة بسذاجة أي طريق يسلك للوصول إلى هنا؟ كنت مستلقياً تحت شجرتنا واضعاً رجلاً على رجل أفكر فى أى شيء ساذج، فإذا مرت سيارة في الشارع الذي يمر قرب بيتنا أتابع صوتها حتى يغيب عن سمعي فإذا وقفت أتساءل ترى من نزل منها؟ ترى أين كان؟ كل هذه الأشياء الساذجة تؤشر إلى أني جائع وفى انتظار الغداء.

وصل الغداء أخيراً.. فأنا لا أهتم بكل تلك الأشياء، لا الشجر ولا الشارع ولا العصافير، لم يكن يعنيني قرص

الشمس بقدر ما يعنينى قرص الرغيف، ولكن صوتًا جاء من بعيد، مألوف لدي، زنزنة يستيقظ لها قلبي، لحن له أجنحة، وأغنية لها أقدام وسيمفونية وروح ولعب وحب وغيره، كل هذه الأشياء ضمها جسم ضئيل في أفق واسع، حراشف خضراء لامعة وأجنحة من رقتها لا تكاد تُرى ولكنها تحمل صاحبها بعيداً عن الأرض دوماً، إنه أبو الزنان يطوّف بشجرة السدر، حينها أنسى كل شيء وأهرول نحوها مبعثراً الاتجاهات.

أبو الزنان.. ذاك الكائن الصغير "مثلنا"، الأخضر "كالأشجار"، اللامع "كالمعادن"، المجنح "كالطيور"، العاشق لشجرة السدر مثل أكياس البلاستيك والقماري ومثلنا، ما أعجبه وقد جمع من كل شيء صفة "أهذا سبب ولعنا به؟!" من أين يأتى؟ لا يهمنا جاء على أجنحته يحمل بينها فرحاً لنا ونهاية مبهمة له، جاء إلى قبلته شجرة السدر راضياً بكل شيء في سبيل بلوغها، مؤمناً بلحائها المجعد وأوراقها الزاهدة وأشواكها القاسية كقسوة الحياة، راضياً باكتفائه بها زاوية قصية عن هذا العالم، "لماذا يراودني دائما أحساس بأن شجرة السدر لا تنتمي لهذه الأرض أو

ربما لا تتكيف مع تطور العصور أو تدحرجها، أو هي مثل أغنية كلاسيكية قديمة وسط أغانٍ سريعة، ظننت دائماً أنها سرحانة تلهو في عالمها الخفي وودت لو خضته معها.. أو تختلي لربها وتشكوه ما حولها، "وأما أبو الزنان فيأتي إليها راضياً قانعاً، بل ومبتهجاً"، كم وددت لو أكون مثله وأحظى بجولة في أعلى غابة أغصانها المتشابكة وأشواكها القاسية لأرى ما يراه أبو الزنان فيها،"وأبو الزنان الشجاع يقصدها دون أي خوف من الأطفال المتربصين به"، هل هو فى قمة الحنان أم قمة الغباء حتى يأتى إلى مصير كهذا؟".

تعثرت ثلاث مرات من فرط اندفاعي قبل أن أصل إلى شجرة السدر، وقبل أن أتعثر كانت في وجهي ابتسامة عقبها تراب، وكذلك أصدقائي، فلم أكن أول وافدٍ إليها، فقد وصل قبلى الكثيرون من أصدقاء المهنة ورفاقي في حب نجمنا الأول أبو الزنان وشجرة السدر، فدائماً ما كان ظلها الساحر ملتقانا في مثل هذه الأيام، ومن ثم نبدأ جولتنا فى إزعاج أبو الزنان وصيده، حجارة وبضع عصى تتجمع بتلقائية وفجأة تختفي وتظهر في أيدى الأطفال، وهم قد التفوا حول الشجرة فى أماكن مختلفة بنظرة حازمة مترقبة

مختلطة ببعض اللامبالاة تعطيك إحساساً بأنهم يعملون فى شيء عظيم.

«"داك أبو الزنان".. نداء يثير مكامن أرواحنا ويبعثرها أيما بعثرة، وهو يعلن بداية ملحمة وكأنها ستغير شيئاً في التاريخ، "وما التاريخ إلا جزء من هذه الحياة"، وأما هنا وفي هذا النداء وما يعقبه فنحن نتحدث عن حياة كاملة، "داك أبو الزنان" يلتفت لها القلب متلهفاً نائياً فيها عن كل شيء يقصد فيها كل أسباب السعادة، وقد اكتفينا بحب أبو الزنان عن كل شيء، وقد اكتفى أبو الزنان بشجرة السدر عن كل شيء، وقد اكتفت شجرة السدر بالعزلة عن كل شيء، وقبل أن نلتفت له ونرى موقعه، فيض من الحجارة تقذف بكل قوة إلى الشجرة، الحجر في تعريفنا له شيء أصم أبكم يتكلم لغة نفهمها جيداً نستخدمه عند أفراحنا وأحزاننا وجوعنا، ونقلق به النهار والقماري وشجرة السدر والنخل والمانجو واللالوب، ونلعب به ونبكي به ونؤلم به، والآن نلقي به رسولا لأعلى أغصان شجرة السدر بشيراً ونذيراً، بالطبع ليست مجرد حجارة ولا حماس أولاد ولا كلمات تخرج وحسب، إنها قصة موت وحياة، روح على المحك، فالقوة لا

تترك خواصها لمجرد هزلية الواقع، ربما لا تعنى لنا شيئاً ولكن بالنسبة لأبو الزنان فهي برزخ بين الحرية والعبودية، بين سماء واسعة وأرض ضيقة، هل يعي أبو الزنان هذا؟ وأنه سيفقد فرصته على تغيير شيء في هذا العالم، أو حتى تغيير نفسه، هل يعي أن هذه اللحظة مفترق حضاري بلا شك"، وبلا شك آخر لم تخطئ رميتى فقد صدم الحجر الغصن، وتخلى الغصن عن أبو الزنان بكل سهولة فى قمة الخيانة لأبو الزنان وفى قمة الوفاء لي، ثم جمعنا الكثير من حشرات أبو الزنان وبدأنا طقوسنا المعتادة حيث كنا نحضر خيطاً فنربط أبو الزنان من رجله ونمسك بطرف الخيط ونضعه فى الأرض ونصيح ونغني: "طير طير ياأبو الزنان"، فيرقد أبو الزنان بلا حركة وقد جمع يديه ورجليه وبدا هامداً كجثة، إنها احدى حيله لخداع الخصوم كما تعلمناها فى مادة الأحياء فيما بعد، لكننا فى ذلك الوقت كنا صغاراً لا نعرف الأحياء ولا غيرها، كنا نبدأ بالضحك حين يحاول خداعنا بهذه الحركة فأقرصه فى رجله فينهض مسرعاً مستعدًا للإقلاع، فأكمل ضحكتى بكل براءة: "طير طير يا أبو الزنان" ثم أتبعه بقرصة في رجله فيبدأ بالمشي

ثم يطير، ولكن لم يكن الطيران الذى اعتاد عليه، ذلك الخيط الذى رُبط فى رجله سلبه أشياء كثيرة، ليست هي المساحات التى كان يطير فيها، ليست هي الحرية التى كان يملكها، ونحن إذ كنا نجرى ونضحك ممسكين به لم يكن يهمنا طليقا كان أم سجينا، حرا أم مستعبدا، ترى هل فكر أبو الزنان للحظة فى مصيره؟ ترى هل تعلم مما جرى له شيئاً؟ ترى هل حلم أبو الزنان بالحرية مرة أخرى بعد وقوعه فى أيدينا؟

غابت الشمس ولمعت النجوم وهدأت القرية، كل شيء كان يسير على قدره كل شيء يسير كما يسير كل يوم إلا اثنين، مجهولا الهوية والمكان، ظلي وأبو الزنان.

الشط الميت

فى آخر الظهيرة، والنهر يجري على استرخاء، والشمس قد حجبتها بضع غيمات قد انتشرت أترابهن في صفحة السماء وتبعثرن فيها حتى كدن يغطينها سوى من فراغات امتلأت بها حواف الغيمات، كعمل لم يتقن، كلوحة لم تكتمل، كمسافر لم يعد، وعلى حافة النهر انتصبت الشجيرات على أخمص أقدامها ممسكة بيديها رفيقاتها متشبثة بالشاطئ والحياة إلى آخر لحظة، ثم يفترش أملها الأرض بساطاً أخضر كبيراً، وتفيء إليها الطيور من المدن البعيدة، لتجدد مثلها تمسكها بالحياة، ومن خلف نظارة زرقاء صغيرة يراقب الرجل الواقف على ضفة النهر الأخرى كل هذا، ينفث دخان سيجارة أشعلها للتو ثم يحرك النظارة أعلى وأسفل بعصبية، ويراقب تدافع الأمواج الصغيرة وازدواجية اللون الغريبة، وحديث سرب السنبر بالقرب من الشط، ثم

ينفث هواء أكثر مما ارتشفه من السيجارة كأنه كان يعي تماماً أنه يراقب شط النهر الحي ذا الخضرة والأشجار من الشط الميت حيث طريق السيارات السريعة والأسفلت الحار والسراب المميت.

كان يقف أمام منحدر من أسفلت باتجاه النهر، وخلفه طريق سريع تمر فيه السيارات كأشباح ميتة، لا يأتي منها سلام ولا حياة، وامرأة غجرية الملامح ظهرت للتو واقفة على بعد بضعة أقدام منه ودون مقدمات قالت له:

– لا يروق للكثيرين الوقوف فى هذا المكان..

التفت إليها مرتبكاً، ثم استعاد توازنه وقال لها:

– جيد.. فقد كنت أبحث عن سبب عدم ارتياحي فى هذا المكان.

– نعم، فلا يروق للكثيرين مشاهدة ذاك الجمال فى الضفة الأخرى من هذا المكان الموحش.

– ولماذا إذن أنتِ واقفة هنا؟

– إني أحسبه تطفلا؛ فقد أثار الرجل الواقف هنا انتباهي فأردت أن أعرف السبب.

رويداً رويداً.. علا صوت صفارات سيارات الشرطة تسير

باتجاههم إلى أن توقفت السيارة بجوارهم ونزل عنها الشرطى وسألهم:

– المعذرة.. هل مرت من هنا دراجة نارية يقودها رجل بمعطف أسود وقبعة صغيرة؟

فقال الرجل:

– نعم نعم.. لقد مر سريعاً قبل بضع دقائق.

– حسناً.

ثم ركب الشرطى سيارته وذهب، أشعل الرجل سيجارة أخرى ورجع والتفت مرة أخرى باتجاه النهر فسألته المرأة:

– ما قصة هؤلاء؟

– ألم تسمعي الأخبار؟ إنهم يطاردون هذا الرجل.

– ولماذا؟

– لقد قتل خمسة أشخاص في بداية هذا الشارع.

تعجبت ثم أردفت:

– خمسة أشخاص؟! ولماذا؟

– لا أعرف، لقد قُتلوا هذا الصباح، ومنذ ذاك الوقت وهم يطاردونه وعندما مر قبل قليل بهذا الشارع انتابني شك كبير أنه هو ذاك الشخص الذى تبحث عنه الشرطة، ورغم

أنه كان يقود بسرعة إلا أني لمحت شكله جيداً واضطراب قطرات العرق على جبينه.. يا لهذا العالم الغريب! مهما استغرقت فى المصائب لا بد من أحد يعانى أكثر دائماً.

– وكيف عرفت أنت؟ ربما قتلهم لسبب تافه، ربما هو قاتل محترف.

– لا أظن ذلك فأن يقتل خمسة أشخاص لابد من أمر عظيم ليفعل كل هذا، ومثلما قلت ربما يكون قاتلا محترفا، من يدرى؟!

أطال فيها النظر للحظة ثم التفت للنهر مرة أخرى وقال:

– لقد رأيت هذا الوجه سابقاً.

– أتقصد القاتل؟

– نعم رأيته فى أحد المقاهي فى بداية الليل، رأيته يأكل بشراهة غريبة، ينكب على الصحن كما الأطفال، ثم يحمر وجهه خجلاً إذا رفع رأسه ورأى أحداً ينظر إليه.

– وأنت ممن كانوا ينظرون إليه.

– نعم، أتعتقدين أن شخصاً كهذا يستطيع القتل؟

– ربما لم تر سوى المظهر.

– نعم نعم، ربما لم أر سوى المظهر فأذكر مرة أن رأيته

وقد سقط على الأرض فى نفس المقهي، فقمت لأسنده فمنعنى صديقي وقال: هذا الرجل خطر جداً، عليک بالبقاء بعيداً عنه.

نظرت إليه باندهاش ثم قالت:

– ربما يكون من رجال العصابات، رجل شرير بمظهر طيب.

– أو رجل طيب بمظهر شرير.

– ولماذا؟

– رأيته يرمى الحب للحمام فى أحد الأزقة..

– ألهذا حسبته طيباً؟

– كان ينزل من سيارته ليعطي السائل مالاً وطعاماً ليكفر عن ما يفعله؟

– ولهذا حسبته طيبا.

صرخ الرجل بملء صوته:

– إذن.. ماذا يفعل حتى يكون رجلاً طيبا؟!

قالها مندفعاً غاضباً.. فنظرت إليه في حيرة.. وقالت:

– آسفة.. هل تعرفه؟ ما كل هذا الاهتمام به؟ هدّئ نفسه قليلاً.

– أنا من يتأسف، إنه ومنذ أن كان فتى يحلم بمستقبل مضيء، استمر فى الدراسة إلى الثانوية، ثم توقف فقد صار عليه أن يصرف على أخوته وأمه، فجاء به قطار السفر إلى هذه المدينة وبحث عن عمل ولكن يومه دائما ما ينتهي بخيبة، لم يجد حيلة سوى بالعمل مع العصابات فى تهريب المخدرات وترويجها، خصوصاً أنها تكسب الكثير من الأموال التى كان يرسل منها إلى أهله ثم أُغرم بفتاة وأغرمت به.

فتح علبة السجائر وأخرج منها واحدة أشعلها وواصل:

– لكن سرعان ما اكتشف أنها ما كانت معه إلا لتسرق ما يكسبه من مال بالتعاون مع رجال العصابة.

كانت حيرة الفتاة تكبر رويداً رويداً مع كل جملة ينطق بها الرجل وواصل الرجل حديثه:

– سرقت الفتاة الكثير من أموال الرجل، ورغم علمه كان صابراً إلى أن جاء يوم زواجها، قتلها هي وزوجها ورئيس العصابة واثنين من أعضائها، وظلت الشرطة تلاحقه ورجال العصابة كذلك إلى أن أصيب بطلق ناري اخترق صدره واستقر فى جنبه الأيمن، ورغم ذلك استمر فى الهرب بدراجة

نارية عبر الطريق السريع المحازي للنهر بعد أن استبدل بالمعطف الأسود والقبعة ملابس غيرهما كان يحملها معه، ليتوقف فى منتصف الطريق، وتواصل الدراجة طريقها إلى عمق النهر ويقف القاتل عند ضفة النهر يراقب من خلف نظارة زرقاء تدافع الأمواج الصغيرة وازدواجية اللون الغريبة وحديث سرب السنبر قريباً من الشط.

دهشت المرأة مما سمعت، وكادت لا تصدق، ولكن سرعان ما تقهقر الرجل وسقط على الأرض متأثراً بالرصاصة المستقرة فى صدره، هرولت نحوه وقالت:

– يجب أن تذهب للمشفى حالاً.

تمالك الرجل نفسه ونهض قائلاً:

– وماذا أفعل فى المشفى، لقد اختارت الرصاصة مكانها، وأنا اخترت مكاني، هذا العالم دوما كان غريبا عليّ، لم أجد لي فيه مكاناً أبدا.

طفقت المرأة تبكى وهو واقف مستند عليها، قائلاً:

– لا تبكى على رجل غريب ضحاياه خمسة أشخاص فى أول الشارع وفى صدره رصاصة! لا تراقبي الشط الحي من الشط الميت.. المسافة بينهما قريبة فالشط الحى ليس

ببعيد، ثم تقدم الرجل باتجاه النهر مبتعداً عن المرأة الغجرية والإسفلت والسراب المميت، نامت المدينة كما كل ليلة، والخريف كما كل سنة، إلا فى آخره عندما فاض النهر ثائراً على ضفافه.

التمثال

لم تهدأ أرضية رصيف الميناء الباهتة من الأقدام الغادية والرائحة، ولم ترو فضتها المهترئة من دموع المسافرين ولا وداعهم الباكي أو من فرحة العائدين الغامرة وعناقهم الحار للأهل والوطن، كانت تحكي صمتاً لم يكن إلا ليواسي أحلام العابرين المسافرين إلى المجهول، أولئک الذين لا يكفون عن التهام المدن واحدةً تلو الأخرى دون اكتفاء، كأنما صُبت عليهم لعنة، لا يعرفون الشوق الذى نعرفه ولا يحبون الحب الذى نعرفه، وأما السفن فكانت أواني من عذاب للمسافرين والغادين على حدٍ سواء، تضطرب قلوب ركابها كاضطراب المياه تحتها فى حين عاصفة فليس لديها قلب ليموت، وما إن صدحت صفارة اضطرب الميناء لها قليلا إلا وطفق الجالسون على الرصيف يتناولون حقائبهم ويحثون الخطى تأهباً للصعود للسفينة المغادرة، وسفينة

أخرى ينزل عنها الركاب ببطء ولا مبالاة دون احترام لقدسية اللحظة، ولكن ما يلفت النظر ومنذ ساعات، الرجل الواقف فى قلب الرصيف بسكون غريب، ورغم أنه يضع يده اليمنى أعلى عينيه شاخصاً ببصره فى اتجاه البحر، لم تكن تثيره السفن البعيدة القادمة ولا استعداد السفن للمغادرة، لم تحركه الصافرة ولا ضجيج الميناء ولا تلويح المسافرين بالأيادي ولا مشاهد الوداع ولا صواري السفن، كان ينظر لشيء أكبر من هذا وأبعد، لم يكن شيء يكفي لتحريكه من سكونه الغريب ولا جمود ملامح وجهه الثابتة.

أثار الرجل الساكن هذا حفيظة رجل آخر كان جالساً على أحد الكراسي الخشبية، حار فكره فيه كثيراً وأغراه المنظر حد الرغبة فى السؤال، فسأل أحد الباعة:

– من ذاك الواقف هناك؟

– أأنت مجنون.. إنه تمثال حجري.

– نعم.. أعرف أنه تمثال حجرى، ولكن لمن أنشئ هذا التمثال؟

نظر له البائع نظرة استغراب موقناً بأن هذا الرجل فاقد العقل لاشك.. وقال له: "لا أعرف".

تقدم الرجل باتجاه التمثال وعاينه جيداً، كان التمثال عبارة عن رجل طويل الشعر يلبس بدلة طويلة ينظر نحو البحر واضعاً يده فوق عينيه، وليس ثمة شيء يلفت إليه النظر بيد أنه كان كافياً ليسرق فكر هذا الرجل، ويثير انتباهه، من نحت هذا التمثال؟ ولمن نحته ولأي سبب ينظر إلى البحر؟ وهل هو مثله ينتظر شخصاً من المفترض أن يأتى قبل سنة أو سنتين؟

عاد الرجل إلى غرفته فى الفندق مشغول البال، ولم يتركه خيال ذلك التمثال للحظة حتى فى نومه إذ استيقظ مفزوعاً لما شاهد ذلك التمثال بنفس سكونه الغريب في حلمه، نهض من سريره وفتح النافذة بعد أن أشعل سيجارة رماها قبل أن يكملها وكأس نبيذ دلقه قبل أن يرتشف منه أيضاً، وقضى باقى الليلة مستيقظاً يُقلب كتاباً مهترئ الغلاف.

عاد الرجل فى مساء اليوم التالى تبدو عليه آثار تعب يوم شاق، خلع بدلته الرمادية ثم رمى نفسه على الكرسى وفى يده كأس عصير يشربه ببطء، ثم تذكر كيف أنه ذهب فى الصباح إلى الميناء ليرى ذلك التمثال الحجرى، وكيف أنه سأل عنه مسؤولي الميناء ولم يخرج بشيء مفيد، وذهابه

إلى مصلحة متاحف المدينة وأنهم قالوا له إن من نحته هو رجل عجوز كان قد جاء في سفينة إلى هنا قبل سنتين تقريباً، وأقام فى المدينة بضعة أيام، نحت فيها هذا التمثال وأوصى بوضعه فى الميناء قبل أن يموت، وتنفيذاً لوصيته ولجمال هذا التمثال ودقة وروعة نحته وضع فى الميناء دون معرفة السبب الذى دفع الرجل العجوز لفعل ذلك.

في أحد الأيام وبينما الرجل في ركن قصي فى إحدى الحانات، وقد أفرغ ما يكفي من الكؤوس كي يأخذ ركنا قصيا فى هذا العالم لاستراحة قصيرة لهذه الليلة على الأقل، بدا بائساً يائساً مستسلماً لأمل ممزق تأكله النار مثلما تأكل قلبه كل يوم، كان يبكي من داخله بكاء عنيفاً بطيئاً، ويرتشف كأساً تلو آخر دون أن يمل، ثم يردد شعراً ويقطعه فجأة ببكاء، ثم أخذ يتذكر حكاية طفولته الأليمة، كأنما يقرأها على نفسه ببطء.

عندما كانوا أطفالاً يلعبون ويغنون فى التل الأخضر بجوار القرية الهادئة، ثم يذهبون لصيد الطيور من الغابة ويسبحون في النهر جنوب القرية متسابقين إلى الضفة الأخرى ثم يأخذون ماشيتهم للرعي، إلى أن هبت عليهم

عواصف الحرب فى ليلة سوداء حين وجدوا أنفسهم أمام فوهات البنادق، حيث هوجمت القرية، واعتقل أهلها الشباب والصبية للتجنيد، والشيوخ للعمل فى المناجم، والنساء للخدمة، لكن رغم هذا كانت النقطة البيضاء فى تلك الليلة أنهم استطاعوا أن يهرّبوا الأخ الأصغر ذي الخمس سنوات رغم أنها كلفتهم أخًا آخر مات فى هذه العملية، ومع مرور شهور الحرب مات كل أفراد الأسرة عدا الرجل البائس والأب فقط، حيث ماتت الأم بعد أيام من المرض والمعاناة، وأما الأبناء فذهبوا مع الجيش للحرب ولم تعد سوى أخبار وفاتهم أما عن الرجل البائس فقد عرک الحروب وعركته حتى أصبحت الحرب له شيئاً يبصق فيه غلواء أحزانه، ساحة يعبر فيها عن بكائه، انفعالا مميتا، لا سيما بعد أن عرف بمقتل إخوانه ووفاة أمه، حينها فقد الأسباب لفعل أي شيء فى هذه الحياة فكان عند الحرب لا يفرق بين عدوه وزميله، كان يقتل كل من يراه أمامه، يضرب زميله مثلما يضرب عدوه، حتى جاء ذلك اليوم حيث تشاجر مرة مع أحد زملائه فى وحدة الجيش فضربه حتى قتله ثم أخذ قنبلة ورماها، فأصابت أكثر من خمسة عشر جندياً وبعدها

فر هارباً راكباً البحر لايدرى له وجهة يقصدها، موقناً بأن ليس لوجوده غاية ولا لغيابه أثر، أي نقطة قد تكون نهايته العادية كما ماتت أسرته وأهله وقريته وكل أسباب الحياة، حان الوقت للتنازل، ومع انتهاء أمله بالحياة لاقى أباه الذى كان قد عمل بالمناجم زمناً إلى أن هرب هو الآخر يفتش عن ابنيه المتبقيين، تقاسما الفرحة معاً وتبادلا عزاءها معاً، وتعاهدا على أن يجدوا الأخ الأصغر الذى قد هربوه منذ ليلة الغزو السوداء.

أخذ الرجل الجالس فى ركن قصي فى إحدى الحانات نفساً عميقاً ورفع جسده قليلاً من الكرسي وفتح عينيه، فإذا بكل رواد الحانة يجلسون حوله يستمعون إلى حكايته، وقد شدتهم وأصغوا لها بصمت وتشوق، بهر الرجل كثيراً، وأدرك بأن كل ما تذكره قد حكاه وسمعوه منه، وينتظرون المزيد، ثم سأل بصوت منخفض:

– ماذا سمعتم؟

فقال له أحدهم:

– بعد أن لاقيت أباك، هل وجدتم أخاك؟

– نعم.. وجدناه فى أول مدينة زرناها.

نظروا إليه باستغراب، إذ كانوا يمنون نفوسهم بفصل ممتع آخر من هذه الحكاية، ثم صفقوا له وانصرفوا عنه، لملم موقفه فى الحانة ثم خرج، وكانت السحب قد أرسلت ماءها على الأرض بحرقة، ورغم ذلك كانت تحتفظ ببياضها الناصع المضيء غير العابئ بظلام الليل الحالك وسواد العاصفة، والرجل بخطى مبعثرة يسير مع الرياح المتقلبة إلى أى اتجاه فى دهاليز الطرقات، فقادته خطاه إلى الميناء وفضية مياهه المتجهة للبحر، شيء ما جذبه لذلك التمثال الغريب، جلس الرجل فى المقعد الخشبى تحت زخات المطر يتأمل التمثال.

لم تنته حكايته مثلما رواها لهم، فبعد أن التقى مع والده فى عرض البحر فى إحدى السفن اتفقا على الافتراق والبحث عن أخيه، على أن يلتقيا كل فترة فى إحدى المدن، وقبل عامين وبينما كان الرجل ينتظر أباه مرت أسابيع ولم يأتِ، مرت شهور وسنة ولم يأتِ، ومنذ ذلك الوقت وهو يطوف بين السفن والموانئ منتظراً رجلا لا يأتي، فلم يجد أخاه ولم يجد والده الذي لم يتبق منه سوى رسالة كان قد بعث له بها قبل ثلاث سنوات، صار يتأمل فيها الآن وهو ممدد على

كرسيه فى غرفة الفندق حين غشاه طيف ذلك التمثال ولم يفارقه أبداً.

أغرته حكاية العجوز الغريب الذى جاء إلى هنا ومات هنا بعد أن نحت هذا التمثال، قبل سنتين، ارتعشت أطرافه، ولاح له سؤال أشرع نوافذ قلقه.. "هل من الممكن أن يكون أبى؟".. لم يجد لسؤاله إجابة، لا منه ولا من مسئولي الميناء ولا مصلحة المتاحف، أخبروه بأن الرجل العجوز كان شحيحاً فى احتكاكه مع الناس، فلم يُعرف عنه سوى أنه رجل أبيض شعر الرأس بلحية طويلة بيضاء أيضاً، مارس الزمن على وجهه لغة التعرجات.

ورغم أنه صباح الشمس الساطعة، تمدد الرجل فى كرسي الركن القصى فى الحانة المعتادة، ينفث دخان سيجارته... وبين شفطه الدخان ونفثه جاء رجل كثير تعرجات الوجه أبيض الشعر حاذق الملامح، جلس وفى يديه كأسان أعطى الرجل أحدهما وألقى التحية فردها وسأله:

– ماذا تريد؟

فقال له الرجل العجوز:

– كانت حكاية رائعة، تلك التى حكيتها فى ذلك اليوم.

– شكرا.

– لكنها كانت الإعادة بالنسبة لي.

فانتفض الرجل البائس حتى سقط الكأس من يده وسال على الأرض وقال له:

– ماذا تقصد؟

– اهدأ، لقد سمعتها من رجل جاء هنا قبل فترة طويلة وأقام لبضعة أيام ثم مات.

تدافعت الأسئلة كثيفة فى عقل الرجل، ثم تحولت دمعاً غزيراً خرج مدراراً من عينين غائرتين، إلى أن تمالك نفسه قليلاً ثم سأل الرجل إذا ما ترك شيئاً هنا.. فقال له:

– لا، لم يترك شيئاً سوى ذلك التمثال الرائع!

– وماذا قال لك عن ذلك التمثال؟

– لقد قال بأن هذا التمثال لحلمه الذى طاف البلدان بحثاً عنه إلى أن وجده.

– وماذا يعنى هذا الكلام؟

– لم أعرف ؛ فلم يكن لديه الوقت لأسأله، غاب عن الحياة كالشمس في يوم ملبد بالسحب، دون أن يثير أى ضجة، انسحب بهدوء من ضوضاء المدينة الصاخبة.

انتفض الرجل وانطلق مهرولاً إلى الميناء ليرى ذلك التمثال، ليرى حلم أبيه الذى وجده، ولا يعرف كنهه، تجاذبته أسئلة كثيرة وهو يركض، آملا أن يجد أجوبة فى ذلك التمثال تشفي غليله، هل يعني هذا الكلام أن والده وجد ابنه المفقود؟ وهل هذا التمثال هو صورة شقيقه؟ وإذا وجده لماذا لم يصطحبه أو يكتب رسالة لى يبين فيها أين هو شقيقي؟ كان يجرى لاهثاً دون أن يتوقف للحظة، إلى أن وصل الميناء وكانت المفاجأة، جمع من الناس حول موقع التمثال، أزاحهم بكلتا يديه دون اكتراث ومضى إلى أن وصل إلى موقع التمثال ولكنه لم يجده فى مكانه، ولا أحد يعرف حقيقة اختفائه، البعض قالوا إنه سرق، وهناك من يقول إن الحكومة قد صادرته.

شغل خبر التمثال المدينة لفترة طويلة وكثرت حوله الأقاويل، قال أحدهم إنه رأى التمثال يتحرك من مكانه ثم يركب السفينة، وذكر آخر بأنه رآه يمشى فى مدينة بعيدة، أصبح الناس يمسون ويصبحون على خبر التمثال المفقود، ولم يمض وقت قصير إلا ريثما سرى الخبر فى البر والبحر وانتشر انتشاراً واسعاً.

وفي تلك اللحظة عندما شق الرجل الصفوف ودُهش باختفاء التمثال، باختفاء حلم أبيه، وقف مذهولاً يحدق فى الفراغ الذى تركه التمثال، ساكناً كأنه تمثال آخر، لم تكن تثيره السفن البعيدة القادمة ولا استعداد السفن المغادرة، لم تحركه الصافرة ولا ضجيج الميناء ولا تلويح المسافرين بالأيادى ولا مشاهد الوداع ولا صواري السفن، كان ينظر لشيء أكبر من هذا وأبعد لم يكن شيء يكفي ليحركه من سكونه الغريب ولا جمود ملامح وجهه الثابتة.

لماذا تركني سايروس؟

بعد أن عادت مارغريت إلى المنزل فى آخر الظهيرة، وضعت طبق الحساء على النار ثم عاينت قفص العصافير وفتحت النافذة المطلة على النهر، بعد كل هذا كان عليها أن تفكر فى شيء أهم، سؤال شغل قلبها ليومين خليا، "لماذا تركني سايروس؟" سايروس زوجها الذى هجر البيت غاضباً منذ يومين معللاً ذلك بطعم الحساء البغيض، ولم يعد إلى الآن.

كانت وهي تقلب الحساء على النار تبحث عن سبب لذلك، ربما مل من مزاجي المتقلب أو حبى لتلك العصافير المزعجة، وبينما هي تقطع الطماطم سرحت بخيالها مع احتمال أن يفكر بغيرها، وبدت خبيثة جداً عندما لوحت بالسكين متوعدة هذه الفكرة إذا ما ثبتت صحتها، واستمرت فى هذه الافتراضات حتى آخر اليوم، ثم فكرت فى تدوينه

فى دفتر حتى تجعل من سؤالها منطقياً وتنظم تفكيرها لتجد إجابة منطقية له.

فى الصباح خرجت من منزلها متعجلة لتأخرها عن العمل كعادتها فى الأيام الأخيرة، وبينما هي متوجهة لمتجر فى وسط الطريق سقط الدفتر الذى دونت فيه سؤالها المحير أثناء عبثها بحقيبتها، ومضت دون أن تلاحظ سقوطه، وبعد برهة، ظهر رجل يركض ركضاً خفيفاً، وينظر بقلق إلى ساعة يده بين الحين والآخر، فإذا به يرى الدفتر أمامه سبباً للوقوف متجاهلاً سبب وقوفه الآخر وهو تعبه واحتياجه للتوقف لأخذ قسطٍ من الراحة، كان الرجل صحفياً فى إحدى الصُحف الاجتماعية الشهيرة، وقد تعود ممارسة الرياضة في الصباح بعد أن أوصاه الطبيب بذلك، ولكنه كان يجرى هذا الصباح لسبب إضافي هو البحث عن موضوع لمقاله فى الصحيفة وقد أصبح يعاني في الفترة الأخيرة ضموراً في خلايا الإلهام الكتابي، عندما رأى الدفتر توقف فجأة، التقط أنفاسه ومسح العرق من وجهه، ثم رفع الدفتر وفتحه فلم يجد فيه إلا السؤال التالي: "لماذا تركني سايروس؟ ".

كان السؤال غريباً مبهماً وجاذباً للفضول، بيد أنه عنى

للرجل الصحفي الباحث عن موضوع لمقال الغد، عنى له أكثر من ذلك، إذ إن السؤال كان كافياً لإلهامه الكثير من الأفكار، رجع الرجل إلى منزله وبعد حمام منعش ووجبة خفيفة جلس فى مكتبه وأخذ ورقة وقلماً وبجانبه فنجان قهوة، ثم شرع يكتب في المقال الذى كان عنوانه: لماذا تركني سايروس؟

الخيال الواسع للرجل وقدرته الصحفية العالية – قبل فترة الركود الأخيرة– جعلا من هذا السؤال مدخلاً ضيقاً لعالم واسع، فقد حرك هذا السؤال المبهم روحاً غريبة فى نفس الرجل جعلته يصوغ موضوعاً صحفياً رائعاً، إذ جعل من اسم سايروس رمزاً لكل ما هو مفقود فى كل مناحي المجتمع، وبعد الانتهاء من كتابة المقال بهره ما أبدع بقلمه، إذ لم يتوقع أن يأتي مثل هذا المقال من مجرد سؤال وجده فى دفتر مهمل فى شارع هامشي، عرضه على مدير تحرير الصحيفة فوقف مبهوراً بما قرأ، ولما نشر فى صحيفة الغد لقى رواجاً كبيراً وتقبلاً واسعاً بين قراء الصحيفة، ولم يمر من اليوم نصفه إلا وقد تكاثفت التعليقات على الصحيفة والمطالبة بالمزيد من نسخ الصحيفة التي نفدت من الأسواق.

بعيداً فى طرف المدينة كانت إحدى أكبر عصابات المافيا تعقد اجتماعاً مهماً عندما دخل عليهم أحد أعضاء المجموعة متأخراً عن الموعد وفى يده صحيفة، ولما سُئل عن سبب تأخره رمى لهم بالصحيفة على الطاولة وقال: "يبدو أن مشكلتنا السرية جداً قد تناولها أحد أولئك الصحفيين البلهاء فى عمود قد لقى اليوم حظه من الذيوع والانتشار، لماذا تركنا سايروس؟ هذا ليس سؤالا لكم، بل هو عنوان المقال"، هنا وجم الحضور للحظة ثم أصبحوا يديرون عيونهم مرة عليه وتارة على الصحيفة الملقاة على الطاولة، ثم تساءل أحدهم: "وهل كان يقصدنا؟"، فرد عليه الرجل قائلا: "إنه صحفي بارع، فقد أحسن تشتيت الموضوع وتمويهه تمويهاً يشي أنه يقصدنا، وحتى وإن لم يكن يقصدنا فانحسار اسم سايروس وقلة استخدامه من الناس، إضافة لذيوع هذا المقال يفتح علينا النار من العصابات الأخرى، خصوصاً تلك العصابة التى تزعمها سايروس بعد أن تركنا".

تواصل الحوار بينهم وأصبح هذا الموضوع هو الموضوع الرئيسي لاجتماعهم، واتفقوا على خطف هذا الصحفي وتقصي حقيقة هذا المقال منه مباشرة، وفى ذات الوقت

كانت بعض عصابات المافيا الأخرى المعادية لهذه العصابة تناقش أيضاً هذا الموضوع وهو ترك سايروس لعصابته وتزعمه لعصابة أخرى وعلاقتهم بهذا المقال الذى فضح المافيا وجعل موضوعاً حساساً كهذا على صدر إعلام يقرأه كل الناس.

بعد يومين من نشر المقال كانت قد قامت فيها دنيا عصابات المافيا ولم تقعد، تمخضت عن خطف الصحفي وإدخاله فى جلسات اعتراف لم تكن إفاداته فيها مقنعة لهم أبداً، ولم يستسيغوا فكرة أنه مجرد سؤال وجده في ورقة ملقاة فى أحد الشوارع، وأيقنوا – فى بادئ الأمر – أنه يتلاعب بهم فأوسعوه ضرباً، ولكن بعد يوم كامل كان قد بدأ يسري خبر اختفاء الصحفى لا سيما وأنه أصبح مشهوراً، قامت العصابة بإطلاق سراحه لعدم جدوى حبسه ولملاحقته من عصابات أخرى، ولكنه ما إن أطلق سراحه إلا وقامت الشرطة بتأمينة تأميناً جيداً.

جلس الصحفي على مكتبه فى المنزل بعد أن أغلق عليه الباب وصار يفكر فى محنته العصيبة هذه، فبعد يوم من الاستمتاع بنجاح مقاله لم يكن يتوقع أن يجد نفسه مختطفاً

بواسطة إحدى عصابات المافيا مقيداً على كرسي ليقضي كل اليوم بين اللكم والضرب، مطالباً بأن يفصح عن كلام لم يسمع به من قبل، بدا على الكرسى يائساً مرعوباً كجندي مأسور بعد معركة انتصر فيها جيشه، "من سايروس هذا؟" أخذ يكرر "من سايروس هذا؟" وعندها انفتح الباب ودخل ولده الصغير وقال له: "سايروس مَن يا أبى؟" فقال بعد أن أخذ نفساً عميقاً: "لا أعرف" فقال له: "هل هو الذى يتحدثون عنه فى التلفاز؟" فاندهش الأب: "أى تلفاز؟!" ثم خرج وفتح التلفاز فإذا بمفاجأة أخرى اختفاء رئيس إحدى دول الجوار فى ظروف غامضة واسمه سايروس، عندها صار قلب الرجل يدق أسرع وأسرع، "لماذا اسمه سايروس؟"، أخذ يردد: "لماذا اسمه سايروس؟"، عندها دق الباب دقات كانت أسرع من دقات قلب الرجل فذهب ليفتح فإذا بهم رجال من وزارة الخارجية ورجال من الشرطة معهم خطاب باستدعاء كاتب مقال "لماذا تركنى سايروس؟".

وبعد يوم كامل من هذا الاستدعاء لم يكن أفضل من ذلك اليوم الذى قضاه مع العصابة، لم يكن هناك ضرب ولا لكمات، بل كان يأتى إليه كل خمس دقائق رجل غير الذى

كان معه قبله، ليبدأ إعادة نفس أسئلة الرجل السابق أو يزيد عليها قليلاً.

كان اختفاء رئيس تلك الدولة بعد المقال بيومين أمرًا محيرًا يمنح أيا كان الذريعة للشك فيه، والأمر ليس بهذه البساطة فقد حصلت مشاكل دبلوماسية كثيرة بين دول المنطقة نتيجة لهذا الموضوع، ونتجت عنها اشتباكات فى الاجتماعات الطارئة التى حدثت وتدخلت فيها الشرطة الدولية.

ولم تدر مارغريت عندما لمحت اسم المقال فى الصحيفة، ثم تذكرت دفترها وسؤالها، لم تدر أن لسؤالها علاقة بالموضوع إلا من قبيل الصدفة، وأن سؤالها البسيط الذى كتبته فى وقت فراغ قصير لتبحث له عن إجابة حقيقية أو خيالية، أنه صار موضوعاً قلب عصابات المافيا رأساً على عقب، وأغرق رؤوس قادتها ومدبري مكائدها بالذهول والخوف والارتباك، بل أصبح مشكلة دبلوماسية بين بعض الدول، مشكلة تُعقد لها اللقاءات والاجتماعات الرسمية فى القاعات المغلقة وتتدخل فيها الوساطات وتتأهب لها الجيوش بين مسئولي تلك الدول ولشهر كامل.. حتى بعد أن رجع سايروس.

موعد الساعة التاسعة

الساعة السابعة والنصف، رآها بعينين ضيقتين، فنهض مذعوراً من السرير، سقط على الأرض مصطدماً بالطاولة، تساءل أين النظارة؟! بحث عنها فى كل مكان، فهو لا يرى جيداً بدونها، وجدها فى سلة المهملات، وضع الشاي على النار، أخذ فرشاة الأسنان والمعجون ودخل إلى الحمام، ارتدى بدلته الجديدة ومشط شعره ونظر لنفسه فى المرآة، ثم نظر لساعة الحائط عبر المرآة فرآها تشير إلى الثامنة إلا ربعاً، هرول إلى المطبخ، صب الشاي فى الكوب وأخذه وخرج مسرعاً مغلقاً خلفه باب الشقة واتجه إلى الشارع، لقد تأخر كثيرا عن موعد الساعة التاسعة.

كانت الشقة فى الدور الرابع، تطل على شارع مزدحم بوسط المدينة، وساكنها قد وصل ليلة البارحة فى وقت متأخر تظهر عليه آثار التعب، فما إن وصل إلا ريثما

نام حتى يستطيع الاستيقاظ مبكرا، فأمامه موعد مهم عند التاسعة صباحاً.

وقف عند الشارع يترقب سيارة أجرة تقله، في يده كوب الشاي وقد وضع حول رقبته الكرفتة دون أن يلبسها، كما لم يعقد رباط حذائه، فلم يكن يهمه سوى أنه تأخر وعليه أن يصل، وقفت سيارة الأجرة، ركب مع السائق فى المقعد الأمامي، وقال له:

– أسرع بنا إلى محطة القطار، عليّ أن أصل إليها قبل الساعة الثامنة.

نظر السائق إلى ساعته وابتسم قائلاً:

– لا يمكن أن نصل قبل الساعة الثامنة.

فصرخ فى وجهه:

– الأمر ليس مزاحاً.. سينطلق القطار في تمام الساعة الثامنة، وأنت لا تدرك مدى أهمية هذا المشوار.

دُهش السائق، وأطلق السيارة بأقصى سرعة قائلاً:

– سنصل إن لم يقابلنا ازدحام فى الطريق.

فى مثل هذا الوقت من السنة الماضية، وعند محطة البص التقى بفتاة وجد فيها فتاة أحلامه، كان يبحث منذ وقت

طويل عن فتاة كهذه تخرجه من ضغط العمل اليومي، فهو موظف بنك عليه أن يقضى معظم وقته فى العمل وقد تعود على ذلك، حتى دخل فى تجربة حب انتهت بالفشل، لم يكن يفي بوعوده إلا نادراً، حتى وجد هذه الفتاة التي تفهمته، تعلق بها وصارحها بحبه قبل أن يركب البص، وبمرور الأيام أحبا بعضهما وصارا يتقابلان كثيراً، أحياناً لا يفي بالوعد ولا يحترم الوقت ولكنها تتقبل ذلك، عندما يأتى متأخراً لها بكرفتته الملفوفة حول رقبته بإهمال، وشعره الأشعث المبعثر، مثلما مرت سيارة الأجرة بالكثير من المطبات والتوقف عند الازدحام والإشارات الحمراء، مرت علاقتهما كذلك بالكثير من المنعرجات والعراقيل، إهمال الرجل وشك المرأة زادا من محنة الحب بينهما.. فهي وبعد الكثير من عدم وفائه لها بالعهود والوعود قررت ألا تثق به ثقة كاملة، وظل يلهث ليكسب ثقتها من جديد، قبل يومين رن هاتفه، كانت هي، ألقت سلاماً بارداً حزيناً وقالت:

– دعنا نتقابل بعد غد الساعة التاسعة صباحاً عند مطعم اللؤلؤة، إن لم تأتِ عند الموعد المحدد في التاسعة فانسَ كل ما كان بيننا..

فقال لها:

– امنحيني دقيقة اشرح لک... فقاطعته:

– لا.. منحتک الكثير فإذا أردت فعليک أن تأتى بعد غد.. وانقطع الخط.

مرت كل هذه الأحداث فى خاطره وهو شارد النظر خلف نافذة السيارة، أخذ نفساً عميقاً، وهو يحدث نفسه: "لم يكن كلامها مفاجئاً فقد كانت هذه المكالمة بعد موعدين الأول وصلت إليه متأخراً والآخر لم أصل إليه أصلاً، والآن عند التاسعة، سيتحدد مصيري.. أسرع أيها السائق الأبله! فأوقف السائق السيارة بسبب الازدحام.

رمى ورقة فئة الخمسة جنيهات على وجه السائق، وفتح الباب وخرج يجري دون توقف، يفكر فى نفسه؛ "لا حل آخر.. لا بد أن أصل عند التاسعة..لا أمل آخر ولا خيار"، انعطف يميناً، ثم يساراً، نظر إلى الساعة فكانت الثامنة إلا خمس دقائق، والقطار سينطلق عند الثامنة ويصل المدينة الأخرى خلال ساعة، "إذن على أن أصل إلى القطار فى خمس دقائق ".. زاد من سرعة ركضه دون أن يحس بالتعب، قلبه مع الأمل الذى سيتلاشى إلى الأبد إن لم يصل في

الموعد المحدد، وصل إلى محطة القطار يتصبب عرقاً وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة، اندفع نحو القطار ولكن لسوء حظه كانت أبوابه قد أغلقت للتو وفجأة انطلق صوت جرس الإيذان بانطلاق القطار، فصرخ بجنون قائلاً:

– افتحو الأبواب معى تذكرة.. افتحوا الأبواب.

جاء أحد العاملين بالقطار وقال له:

– آسف عليک أن تنتظر القطار التالى بعد ساعة.

فقال له:

– أرجوک، أنا مضطر لاستقلال هذا القطار تحديداً.

فاعتذر له العامل مرة أخرى وبدأ القطار بالتحرك، دفع الرجل العامل ورماه أرضاً وبدأ فى الركض بجانب القطار إلى أن سمع صوتا من خلفه يأمره بالتوقف، التفت إليه فإذا هو شرطي، وقف والتفت إليه وأخبره أنه مضطر للصعود لهذا القطار، فقال له الشرطي بصبر نافذ:

– هات ما يثبت هويتک.

أدخل يده في جيبه ليفاجأ بفقدانه محفظته التي تحوي بطاقته الشخصية ونقوده التي ربما سقطت منه بينما كان يجري، أخرج يده فارغة، أخذ نفساً ونظر إلى القطار بحسرة

وانكسار وحزن وقال بصوت منخفض:

– لقد سقطت بطاقتى..

قاده الشرطي إلى مركز الشرطة، كان يمشى منخفض الرأس، بلا مبالاة، فقد كل شيء، سأله الضابط أسئلة كثيرة دون أدنى تجاوب منه، ودون أن يرفع رأسه، اغرورقت عينه بدموع لم تنزل، اختنق صوته وشعر بغصة حادة في حلقه، دقت الساعة، الساعه التاسعة، خلع ساعته ونظارته وأعطاهما للشرطي مستجدياً أن يسمح له بمكالمة هاتفية، دهش الشرطي من تصرفه وأعطاه الهاتف، اتصل بالرقم فردت فى صوت هادئ:

– نعم!

فقال لها:

– صباح الخير.. أنا مصطفى، كنتي قد اتصلتِ بي قبل يومين وحددتِ لي موعداً، فكرت فى هذين اليومين ووصلت لقرار بعدم الوفاء بموعدك، لابد لنا أن نفترق.. وداعا.

ترك السماعة دون أن يغلق الخط، التفت بجسمه عكس اتجاهه وبدأ بالسير وحيداً هائماً كما كان فى مثل هذا الوقت من السنه الماضية.. وحيداً بلا هوية.

انحناءة الصيف الأخير

كوب شاي غمست فيه قطعة الخبز لآخرها، هذه هي الصورة المُثلى لوصفي الآن، فقد انغمست فى الألم تماماً كقطعة الخبز هذه، بيد أنه لم يلتقطني أحد عن الكوب، هل ارتاحت معى الهموم أم ماذا؟ لم تكن الهموم ترتاح مع جدي، فلم يكن يوليها كبير اهتمام، جدي يؤمن بأن السعادة ليست كبيرة التكلفة، فلقمة هنيئة أو نومة خفيفة أو ضحكة طفلة أو مزحة، كافية بأن تجعل هذه الدنيا بهمومها مكاناً جيداً للعيش، حاولت دائماً الإيمان بهذا المفهوم وأن أستمتع بالتفاصيل فلم أستطع، ليس قبل ذلك اللقاء، حين سلمت علي تلك الفتاة، عرفت بأن السعادة مجرد تفاصيل صغيرة لا ننتبه لها قط، كان سلاماً عادياً ولكنه لم يكن كذلك في الحقيقة، لقد نقلني من حالة إلى حالة، أصبحت بعده أحب الحياة وأصبحت الآمي وكأنها شيء فى يدي أستطيع أن أرميه فى أي لحظة

أو أكف به العين عن نفسي حين يغمرني الفرح بعنف.

بالطبع لم تلق الفتاة السلام على الريح والتقطته أنا، بل هي الفتاة التى كنت أعشقها بصمت طيلة السنوات السابقة ولا أجزم هل تبادلني الشعور أم لا؟ فهي مثلي مغلقة تطوي أشياء كثيرة، ومنذ ذلك اليوم صرت غنياً بذلك السلام البسيط، تريحني غفوة لدقائق معدودة وتضحكني أي طرفة عابرة، ويثيرنى الشعر فى كل لحظة، أصبحت جميع أشيائها تهمني، أداوم على شراء صحفها المفضلة، أصبحت رواياتها تزين رفوف مكتبتي، فقط لم نكن معاً، كنا نرتاد المطعم نفسه ونجلب الأطباق نفسها دون أن نجلس معاً، كنت أفتح الصحيفة ثم أثقبها وأراقبها من الثقب بنظارتها الزرقاء فلا أعرف إلى أين تنظر؟ ربما إلى الرخام الأحمر وربما إلى باب العابرين وربما هي مغمضة عيناها تفكر بعيداً عني، لم أطق تلك النظارة الزرقاء أبداً إذ تحجب عنى تينك العينين اللتين تحددان مصيري فى لحظة، كثيراً ما فكرت أن أسرق تلك النظارة المستبدة وأكسرها للأبد، ماذا لو لم تدارِ تلك النظارة فضح العينين لصاحبتهما؟!!

مرت الأيام هكذا، لم نلتق إلا فى الصُحف، وأكواب القهوة

والروايات، هل مثلما أتطلع لما خلف النظارة.. هل تتطلع هي لما خلف الصحيفة؟ أم تراه، واضحاً ذلك الثقب وواضحة هزيمتي الحمقاء؟ بخلت على التفاصيل مجدداً وعاد الألم مرة أخرى يطرق بابي واختل إيماني بتلك التفاصيل التي تسعد جدى مرة أخرى، فقد عاد الألم أكثرة حدة هذه المرة وصارت كل تلك الأشياء فى الذاكرة لا تمل من إحداث الضجيج.

دائماً ما كنت عند الامتحان أحاول تذكر ما قرأت لأملأ فراغات الأسئلة، ودائماً ما يقول لنا الأستاذ: أهم شيء وأصعب شيء هو التذكر عند وقت الحاجة، وفيما بعد تعلمت شيئاً لم يحدثنا عنه الأستاذ، وهو أن النسيان هو الأصعب، فقد حاولت نسيان تلك الفتاة ولكنها ما زالت تتجول فى طرقات روحي رغماً عني، لم أكن متأكداً من رغبتي بنسيانها، حاولت ذلك ولكننى كنت أنسى دائماً أني أحاول نسيانها وأظل أراقبها كطفل صغير.

هكذا ومنذ أن قمت بإزالة ذاكرتى بعملية جراحية، رأيت عالماً غريباً، أصبحت الشخص الوحيد الذى لا يعرف شيئاً ولا يملك ذاكرة لاستعادة حدث، ولذلك حاولت الفرح فلم أجد سببًا ولكني وجدت أسباباً كثيرة للحزن وطريقاً أسهل إليه،

أزيلت ذاكرتي ولكن العالم ثابت بنفس تفاصيله، يوجعني دون أن يهتم لي أو لذاكرتي، يوجعني على حسب صفاتي، فالحياة تفيض بوجع يومي حتى لمن يحاول التخلص من أوجاعه.

جاء الصيف وهذا ما ينقصني، أو ربما أنا ما أنقصه، جاء على غير عادته، هادئاً هذه السنة رغم احتفاظه بنفس حرارته ولكن شيئاً ما من الصيف كان يحاورني أو يفاوضنى على شيء، كان صيفاً لم أشهد مثيلا له، ورغم سقوط أشعة الشمس العمودية علي، كانت حرارتها ترتد عني وتترك لى لونها الذهبي الجميل، أهي رأفة الصيف بكثرة أوجاعي أم أنها انحناءة الصيف الأخير لي.

كنت أجلس فى الركن البعيد، والناس بجواري يتجاذبون الحديث والأنس يمنة ويسرى، وأمامي كتاب كنت قد نسيت اسمه لما سمعت جملتين.. "متى زواجها؟.. "بعد أسبوعين".. لم أكذب أذني ولم أكذبهم فبعد أسبوعين ستتزوج تلك التى كنت أحاول دائماً نسيانها، جدي كان دائماً يقول: إذا كثرت عليك الهموم فألقها فى البحر، ذهبت إلى البحر والشمس تنحدر للمغيب، لألقي فيه همومي أو ربما لألقي فيه شيئاً آخر.

رقصات على المحك

دهشة كبيرة ارتسمت على وجه ضابط الشرطة وعسكره وهم يحاصرون البيت بحذر شديد، فقد كانت آخر توقعاته – وبعد شهر من السهر والتعب والملاحقة والبحث وإعداد الكمائن لهذا اللص – انتهت كلها بالخيبة – أن يجده ببلاغ عادي في أحد البيوت فى قلب المدينة وفي وضح النهار.

– خذو حذركم أيها الجنود وإياكم وأن يفلت منكم هذا المرة!

قالها لهم وفي وجهه غبطة يخالطها الخوف والغضب، وذكريات مريرة مع هذا اللص، فكم مرة كان قاب قوسين منه أو أقرب، وأفلت في آخر لحظة، وكم مرة أعد له الكمائن وقبض الهواء، بل وأحياناً تنقلب الكمائن على معديها، تذكّر كيف أنه قضى خمسة أيام في المشفى عندما سقط من الطابق الثاني من عمارة حديثة التشييد بعد أن دفعه ذلك

اللص ومن حينها وظهره يؤلمه، أيضاً عندما حبسه اللص هو وعساكره فى أحد المخازن، وتلك الصورة التى نشرت فى الجرائد وقد دلق عليه جردل الدهان الأبيض، ورغم كل ذلك لكنه لم يكن ليقاوم إعجابه بهذا اللص وذكائه الشديد، تنهد قليلاً وبدت على وجهه ابتسامة النصر: أخيراً سأقبض عليه، فالصدفة أجمل في الحقيقة من انتظار، أخذ يضحك بمكر حين ردد في سره: أتطلع إلى ملامح وجهه الخائفة حين تواجه مسدسي، وكيف سيمد يديه عندما أمد قيدي..
ثم صاح بصوت مزمجر:

– إياكم أن يهرب أيها العساكر، يجب أن يأخذ القانون مجراه.

حوصر المنزل جيداً ثم فُتح الباب، دخل الضابط بأسارير وجهه الغاضبة وقطرات العرق المتناثرة من جبهته، وخلفه العساكر بخطوات بطيئة تتأرجح بين الثبات والتردد، وقفوا على مشارف باب الصالة فسمعوا صوتًا آتيًا من الداخل، من الواضح أنها أغنية تنطلق من راديو، صاح الضابط بأعلى صوته:

– سلم نفسك أيها المجرم.. كل المنزل محاصر..سلم

نفسك!

وقف أمام الباب وركله صائحاً: قسماً لن تفر هذه المرة!

وفوراً اقتحموا المنزل وانتشروا في غرفه، تقدم الضابط باتجاه مصدر صوت الأغنية فإذا به يقف مشدوهاً فاغرا فاه لهول ما رأى، اللص الخطير فى عرض الصالة يرقص على ألحان أغنية تنبعث من الراديو، غير مكترث لما يجري حوله، يتمايل يمنة ويسرة كأنه في عالم منفصل، اللص ذو الوجه المستطيل والقامة الطويلة والمنكبين العريضين وقد خلع نعاله ومعطفه وأخذ يرقص، صاح الضابط بأعلى صوته:

– اثبت مكانك أيها اللص!

التفت إليه اللص دون أن يتوقف عن الرقص ودون أن تهتز قسمات وجهه للحظة:

– عفواً سعادة الشرطي ولكنها أغنيتي المفضلة ولا أستطيع مقاومتها.

– قلت لك توقف أيها المجنون.

وهنا اجتمع جميع العساكر حول هذا اللص الغريب.

توقف اللص عن الرقص ضجراً، ثم قال:

– ماذا؟!

– هل تتكر أنك جئت إلى هنا للسرقة؟

– نعم.. لا أنكر.

– سنأخذك الآن بجريرة اعترافك بالسرقة ووقاحتك.

قال اللص وقد عاد إلى الرقص:

– حسنا دعوني أرقص قليلاً وتقدموا وارقصوا معي.. إنها لحظة الفرح القصوى.

– كيف ترقص وأنت مجرم في قبضة القانون؟!

– لحظة الرقص هذه ربما لا تتكرر..هيا تعالوا وارقصوا واقطفوا بهجة الرقص وهي طازجة.

دهشة فاقعة امتزجت بإعجاب بدت على وجه الضابط "إنها لحظة جميلة على قول هذا اللص، فلماذا لا نرقص؟"، تقدم الضابط وسلاحه فى يده وأخذ يرقص مع اللص ثم تبعه العساكر وهنا تبدل المشهد البوليسي إلى ساحة رقص وفرح لحظي يرقص فيه الشرطي وبيده سلاحه مع اللص فى تناغم جميل.

سأله الضابط:

– ما اسمك أيها اللص الراقص؟

– يقولون لي أبو فراشة.
– لماذا؟
– لأني أرقص كثيراً مثل الفراش.
– هل تريد الحق.. أنت كالفراش فى الرقص ولكنك لست كالفراشة فى أشياء كثيرة أخرى.

ابتسامة راحة بلهاء علت وجه الضابط، وبخيلاء جلس على الكرسي الأمامي لسيارة الشرطة المتجهة إلى القسم، وضع رأسه على المقعد رافعاً أنفه الحاد نافثاً هواءً ظل جاثماً على صدره طوال الأشهر الماضية، مضت سنوات لم يشعر فيها بالراحة التي يشعر بها في هذه اللحظة، حالماً بحافز كبير من قائده أو وسام أو ربما ترقية تتم بها فرحته الكبيرة.

السيارة تمر ببطء في وسط المدينة المزدحم، ولم يأمر الضابط بفتح منبه النجدة (الونان)، بل أراد الاستمتاع بالطريق والموقف، أراد قطف عنب المتعة على جانبي الطريق والاحتفاء بتلك الغنيمة الثمينة المقيدة الأيادي في صندوق السيارة، اقتربت السيارة من إشارة المرور وأمام الإشارة كانت السيارات تتحرك ببطء كحيوانات تحرك

أطرافها، تتحرك قليلاً ثم تتوقف، في تلك الأثناء هنالك صوت يعلو تدريجياً، صوت انتبه له اللص أبو فراشة، إنها الأغنية نفسها التي رقص عليها ساعة القبض عليه، هنا رقص قلبه عليها إلى أن أخذ يستجدي العساكر أن يتوقفوا هنا، وما إن رفضوا إلا وأخذ يصرخ بملء صوته، فتوقفت السيارة ولما رأى الضابط ولع اللص أبو فراشة بهذه الأغنية سأله هل سترقص في الشارع فقال: "نعم.. إنها فرحة الموقف اللحظي..الكوب الطازج الذى لابد من شربه كاملاً".. فسمح له بالنزول من السيارة والرقص قليلاً وما إن بدأ فى الرقص إلا وحدث انفجار هائل صاحبه صوت دوي يكاد يعصف بالآذان، اضطرب له الشارع أيما اضطراب، واصطدمت السيارات ببعضها وهرول الناس فزعاً فى كل الاتجاهات، وهنا لم يتردد اللص أبو فراشة فى اقتناص السانحة للهرب، وما إن انتبه له أفراد الشرطة إلا وهرولوا خلفه يتقدمهم الضابط.

استلقى الرجل على ظهره ضاحكاً بهستيريا حتى اغرورقت عيناه بالدموع ولم يستطع حتى مواصلة الكلام مع الرجل الجالس بجانبه، والذي قال:

– ثم ماذا حدث يا أبو فراشة؟

– لم يحدث شيء، فقط طفت بهم حول أزقة السوق ثم اختفيت فجأة عنهم وتركتهم فى حيرتهم يعمهون.

ضحك الرجل الأصلع ذو اللحية الصغيرة، ثم أردف:

– لم أكن أتوقع أن تفعل بهم كل هذا؟

– كما وعدتک بأن أجعلهم يرقصون ثم يهربون بعد انفجار القنبلة وكأنهم يفرون من هذا الحدث، وهذه هي صورهم وهم يرقصون ثم يهرولون، أما مساء اليوم فهو الحدث الأبرز فسوف تراهم وهم يغنون.

– يغنون..هههههه.. كم أتطلع لرؤيتهم هكذا.. ولكن كيف؟

– سوف ترى بأم عينيك صورهم تلوح فى صُحف الغد.. نعم سأرسل كل الصور للصحف وستراها وتضحک.

ضحك الرجل حتى استلقى على ظهره، ثم نهض وسأله مرة أخرى: ولكن كيف؟

جن جنون ضابط الشرطة واصبح فى حيرة من أمره، كيف يفلت هذا الوغد مرة أخرى ويخدعنا بهذه السهولة، ثم سأل العسكر:

– ما أمر تلك القنبلة التي انفجرت؟

– لم نجد معلومات مؤكدة ولكنها لم تحدث خسائر كثيرة فقط بعض الخسائر البسيطة فى المبنى تحت التشييد الذي انفجرت فيه.

صاح الضابط غاضباً:

– والآن ماذا نفعل؟ ماذا نقول للقائد بعد أن بشرناه بالقبض على اللص، أنقول له إنه هرب! تباً لكم، قولوا شيئاً أيها الحمقى.. رؤوسكم فارغة هكذا على الدوام؟! تكلموا أيها الفاشلون. وقف العساكر منكسي الرؤوس وقد امتلأوا غيظاً، يود كل واحد منهم لو يمسك هذا الضابط المتعجرف ويوسعه ضرباً على وقاحته تجاههم.

فقال أحد العساكر:

– أظن أن فى يدنا وسيلة للقبض عليه.

– ولماذا أنت ساكت أيها الأبله؟

– عندما فتشته اليوم وجدت عنده هذه الورقة.

– وما هذه؟

– إعلان عن حفل سيقام اليوم فى مسرح النهر، لابد أنه يريد حضور هذا الحفل.

– حسناً.. هذا جيد أيها الشرطي..سنذهب الليلة لهذا الحفل بلبس مدني، ونتمنى أن يأتي حينها، لابد من قبضه بيد حديدية.

لم تمتلئ باحة المسرح بالجماهير كما كان متوقعاً، فتلك القنبلة التي انفجرت قد أثرت سلباً على حضور الكثيرين للحفل، فكان الحضور متوسط العدد، حضر ضابط الشرطة بأمل جديد فى قبض اللص ومعه العساكر الذين انتشروا في أرجاء الساحة كي يبحثوا عن اللص أبو فراشة، اكتملت تجهيزات الحفل ولكن لم تبدأ إلى الآن بسبب تأخر الكورس "المجموعة التي ستؤدي خلف الفنان"، ورفض الفنان أن يغني إلا بحضورهم. تململ الجمهور وارتفعت أصواتهم ولكنه ليس كتململ ضابط الشرطة الذى قد عقد كل أمله فى القبض على اللص في هذا الحفل. ذهب الضابط إلى الفنان وتكلم معه بلهجة حادة:

– اسمع، بكورس أو بدون يجب أن تغني الآن وحالاً.

– حالاً! ولكني لن أستطيع الغناء بدون وجود كورس.

هنا استشاط الضابط غضباً، وصاح: الآن!

هدأه أحدهم إذ قال له:

– إذا كان يريد كورس، فسنحضر له كورس.
– وكيف ذلك؟
– أشخاص من الجمهور مثلاً.
– فكرة جيدة!

أبلغها للفنان، فوافق بعد إلحاح، بدأت معاينات اختيار الكورس، إلا أن الفنان رفض ثلاث مجموعات من الجمهور، لم يتمالك الضابط نفسه وأخذ يصرخ فى الفنان: "اسمع.. عليك أن تغني الآن بأي مجموعة من الكورس وإلا فسيكون مصيرك الجلد".

– حسناً، لماذا لا يغني معي مساعدوك هؤلاء؟
– هؤلاء العساكر؟!
– نعم.
– لكنهم لا يعرفون.
– فقط أريد أربعة منهم لا غير.

تدبر الضابط الأمر ورغم سذاجة الفكرة، إلا أنه قبلها، وقف عساكر الشرطة خلف الفنان كالكورس للغناء معه بعد أن أعطاهم الضابط أمراً بفتح عيونهم جيداً لكل من يأتي ويرقص مع الفنان، فربما يكون اللص بينهم ثم بدأ الحفل.

اضطربت الأضواء الملونة، وبدأ الغناء والطرب وبدأت الجماعة في حالة من النشوة والطرب يرقصون ويتمايلون على أنغام الموسيقى ويرددون مع الفنان رغم رداءة أدائهم، إلا واحداً فى وسط الحفلة لم يكن يتمايل أو يرقص بل كان يكاد يفقد صوته بسب موجة الضحك التي انتابته حتى استغرب لأمره من حوله وبجانبه، رجل أبيض الشعر طويل القامة، فقال الرجل الضاحك وقد آلمته بطنه من كثرة الضحك:

– يالك من مجنون يا أبو فراشة، أنت عبقري مافي ذلك شك.

– لا تقل اسمي فربما يسمعوننا.

– ومن يسمعك أولئك الشرطة فى المسرح يغنون.. ثم انفجر ضاحكاً مرة أخرى.

استيقظ أبو فراشة من النوم، فتح النافذة فتسلل ضوء الشمس باعثاً الحيوية والحياة في نواحي الشقة، أخذ حماماً، واحتسى الشاي، وارتدى بدلة بنية جميلة، مشط شعره ثم نظر لنفسه فى المرآة، كان في بداية الثلاثينيات من العمر، فتي الملامح، وسيم الطلعة، بادي الهيبة، ويبدو صغيراً

على مجرم دوخ شرطة البلد وأربك حساباتها، فتح الباب ثم أخذ صُحفه اليومية، عاد للشقة وجلس يتفحص الصُحف، يبدو أن يوم شرطة المدينة كان أسود، حيث استيقظت على هجوم عنيف من الصحافة مدعماً بالصور الموثقة، تدور عناوين معظم الصُحف حول: اللصوص يسرقون ورجال الشرطة يرقصون، وصورة عساكر الشرطة وهم يرقصون ثم صورهم وهم يهربون من مكان انفجار القنبلة، وصورة لهم يقفون خلف الفنان وقد انتظموا فى الكورس للغناء فى الحفل، وهكذا عاشت المدينة يوماً عصيباً، ظلت فيه الشرطة منكسة الرأس وضابط الشراطة في براثن الفشل والفضيحة.

ألقى أبو فراشة الصُحف على الطاولة، نظر لنفسه فى المرآة مرة أخرى، تفقد شياكته، هندامه ثم خرج، سيجارة وسيجارتان وحديقة جميلة تطل على نهر وحسناء بجانب الطاولة وحيدة فاجأها بوردة حمراء وتحية أنيقة ثم جلس.

كان النهر يجري على شط حديثهما المطول وكلامهما المعسول، قرمزية العينين كانت، هادئة الطبع، كلما تكلمت وكأنها تطل من نافذة حسبتها بعيدة فتسمعها بنفس لهفة

اللحظة السابقة، وكذلك لهفة اللحظة القادمة، صوتها الرخو يزور حواسك كلها عابراً لا تحفظه ولا تمله أبداً، وضحكاتها كرقصة سرابات الفراش في حقل الزهور، هكذا يراها أبو فراشة منذ أن قابلها قبل أسبوعين.

كما تشرخ المراكب وجهه أحس النيل بشرخ رغم عدم وجود مراكب؛ حينما نظرت إليه الفتاة بعين حزينة ثم قالت:

– ولكن أنت لص، وهذه مشكلة الصباحات التى أقرر فيها أن ألتقي بك، ثم المساءات بعد لقائك، قلبي يقول كلاماً وعقلي يقول كلاماً، وبينهما صرت لا أعرف ماذا أفعل.

أخذ تفاحة من صحن الفاكهة الموضوع على الطاولة أمامه ثم قال:

– ما رأيك في جولة على هذا الشاطئ؟

وافقت، فنهضا واقتربا من النهر، حينها قال:

– لكل شيء سبب، فاللصوص هم بشر أيضاً لهم مفاهيمهم وتبريراتهم الغبية على حد قولكم.

قاطعته:

– أتريد إقناعي بأن السرقة شيء جيد، عمل نبيل مثلاً؟!

– لا ليست كذلك، ولكن فى بلادنا يشابه الابن أباه ومن

شابه أباه فما ظلم، أما أنا فأمي توفيت مبكراً وأبي سافر فلم أجد إلا عمي الذى أذاقني العذاب منذ أن كنت طفلاً، فقد كان يجبرني على دفع شيء أساهم به فى مصاريف البيت كما كان يقول، وفى بلد كهذه لا تبدو الظروف مواتية لأمثالنا، فإما أن تأكل أو تؤكل، حاولت البحث عن عمل شريف فلم أجد، أو بالأحرى لم أجد فرصة أفضل من أن أعمل لصاً.

– إذن لماذا لم تتركها بعد أن أصبحت غنياً واستغنيت عنها؟

– لسبب بسيط ؛ وجدت في هذه البلد الكثيرين ممن يستحقون السرقة والقدر الأسود.

– هل تعرف.. نسمة دافئة تغشاني من كلامك هذا تليها نسمة مذعورة من البرد فيذعر لها قلبي.

نظر إليها قليلاً، ثم خلع بدلته وقميصه فإذا بظهره المليء بالأوشام والرسوم:

– انظري هنا!! لست بمحب للأوشام ولكنها تغطى جزءاً أسود فى حياتي، إنها آثار جلد عمي لي بالسوط، أوتعرفين لم؟ لأنى رفضت أن أسرق فى بادئ الأمر.

هنا حزنت الفتاة كثيراً ثم قالت:

– آسفة!

– لا مشكلة.

ثم طفق معول الحب بينهما يحفر عميقاً عميقاً.

غرفة ضيقة امتلأت جوانبها بالكثير من الأغراض، ألواح، أقلام، ماكينات صغيرة والكثير من الخردة، دخل إليها أبو فراشة ورمى نفسه فى أحد الكراسي، ثم قال للشخص الذى ينحت فى إحدى الخشبات الصغيرة:

– أزل عني هذه الأوشام اللعينة!

– لعينة؟ بعدما خدمتك تقول لها لعينة...إذن قل هل خدعت بها فتاة أخرى؟

– نعم.. ولكن كما قلت فتاة أخرى ليست كالفتيات الأخريات.

– كيف ذلك؟

– لا أعرف!

ثم أزيلت كل الأوشام من جسده إلا فراشة صغيرة أعلى ساعده لم يستطع إزالتها فسأله عنها فقال هذه آخر فراشة في حديقة طفولتي الوردية.

في صباح وردي اللون، والرجل والمرأة فى سيارة فى وسط المدينة يمشطون أرصفة الغرام والشارع المزدحم، صرح لها بحبه وصرحت له بحبها وصارت السيارة تتحرك فى فراغ عظيم، إلا حين أتى ذلك الصوت، إنه الأغنية التى رقص عليها مع الشرطة رقصة الفراش، لم يجد أنبل من هذه اللحظة كي يغتنم كؤوس الفرحة اللحظية، أوقف السيارة، خرج وتناول يد عشيقته، سألته إلى أين فقال: "إنها فرحة الموقف اللحظي، الكوب الطازج الذى لابد من شربه كاملاً"، خرجا من السيارة إلى فضاءات أخرى.. وما إن ازدهرت الفراشات فى رصيف الشارع المزدحم حتى أحس بسموم في المكان، فنظر حوله فإذا برجال الشرطة يهرولون نحوه من كل الاتجاهات.

شتلة صغيرة

فى القرية البعيدة والنهار الحارق والوادى الرملي، وصفير الرياح الحاد عندما تتخلخل البيوتات المتفرقة وأغصان الأشجار الكبيرة إلى شتلة صغيرة فى طرف الوادي، شتلة انثنت مع الرياح إلى أن مست برأسها الأرض، إلى أن فقدت الأمل بالحياة، حتى أنها بدأت تمارس طقوس الوداع الحزين، لم تكن تعرف أنها ستنجو من هذه العاصفة الرملية، أنها ستنمو وتزهر، لم تكن تعرف هذه الشتلة الصغيرة أن جذورها ستخترق أعماق الأرض، وأن أغصانها ستتباهي بالذروة فى العلو حتى يشاهدها أهل القرى الأخرى، لم تكن تعرف أن من جذعها المتين سيصنع الناس كراسيهم وطاولاتهم وسرائرهم، لم تكن تعلم أن في ظلها الواسع سيجلس الناس فرادى وجماعات فى حلقات الأنس والأفراح والأتراح وسيجلس أجاويد القرية

لحل مشاكل الناس، وسيخطب فيها شيخ الجامع خطبة صلاة العيد، وسيخاطب تحتها والى المدينة الناس، وستعلق عليها المذابح والكرامات، لم تكن تعرف أنها ستشتهر فى كل المدينة، وسيقصدها الناس في رحلاتهم، وأن السائح الإفرنجي سيفتتن بها ويصورها بكاميرته كامرأة جميلة، ثم يكتب عنها فى الصُحف الإفرنجية، لم تكن تعرف كل ذلك فى ذاك النهار الحارق لما انحنت مع العاصفة الرملية إلى أن مست برأسها الأرض وفقدت الأمل فى الحياة..لم تكن تعرف.

رسالة التبغ

حبيبتى، اشتقت إليک شوقاً شديداً فاض به القلب، وضاق عنه الحبر والورق، اشتقت لابتسامتک المفاجئة حين تصيبني بارتفاع الضغط ثم انخفاضه ثم تشفيني، اشتقت لقمر يطل من شباک عينيک يضيء ظلامي، وأنا إذ أكتب إليک هذه الرسالة، جالسًا فى مقعد فى حديقة عامة، حولى الكثير من الناس، الأطفال يمرحون والعشاق يبتسمون والحمامة تغازل نفسها فى مرآة البحيرة، هواء عليل دافئ ينساب بين كل هؤلاء إلا أنا فما زلت أشعر بالبرد عندما لا تكونين بقربى، هل تذكرين تلک الصخرة التى ذابت عند الشاطئ عندما اعترفتِ عندها بحبکِ لي، هل تذكرين دفء رمال البحر عندما كنا نتمشى عليها؟ فتندفع الأمواج نحونا فتأخذين بيدى ونجرى نحوها، فسألتک لماذا؟ فقلتِ: «معا نستطيع فعل أى شيء». بفارغ الصبر مازلت أنتظر الغد، غداً سنلتقي بعد كل هذا

الغياب، غداً سأنظر لدهشة عينيک لأعيد تعرفي على ذاتي، ليأخذ الشروق لونه الفضي عندى، غداً ستسترد الألوان ويصير الحب دافئاً كما كان، ستعود الحياة للرمل والبحر والمقعد الخشبى، غداً سنلتقى حبيبتي عند منحنى البحر، لنردع أمواجه كما كنا لنجدد اعترافاتنا عند صخرة أخرى... غداً سنلتقى حبيبتي.

التوقيع:

حبيبك المخلص

وضع القلم، رفع يده عن الورقة، أخرج بعض التبغ ونثره على الورقة وأخذ يلفها، بلل يده ببعض اللعاب فبدت كسيجارة لفها جيداً، تناول علبة الكبريت أحرق العود الأول فانطفأ، أحرق الثانى فانطفأ، أحرق الثالث ثم أشعل به طرف سيجارته ثم أخذ نفساً عميقاً منها ونفثه بقوة فانتشر فى كل أرجاء غرفته الضيقة، وضع يده تحت رأسه الذى أسنده على الكرسي وأخذ ينفث هواء سيجارته بهدوء.

هكذا كان يكتب رسالته اليومية، هكذا كان يلفها سيجارة ثم ينفث هواءها في غرفته، هكذا كان يفعل كل يوم.. منذ أن أصيب بالجنون.

عندما علق كيس البلاستيك بشجرة السدر!

توقفت الدنيا فى لحظة، عندما علق كيس البلاستيک بشجرة السدر، لم يكن المسكين يدرى بأن شجرة السدر ستوقف انتماءه للريح وامتهانه السمو، لم يكن يعلم أنها ستسقط مشاغباته عن ذاكرة الأشياء، لم أكن أعلم أن باستطاعة شجرة السدر إيقاف دوران الأرض ولا إسقاط الدليل الوحيد على كرويتها.

اتخذت الشمس مركزاً جيداً لرؤيا واضحة لتلبية رغباتها الفضولية، وهبت رياح كسولة لا تقوى حتى على رفع أيادي الشجر بالقدر الذي يمكنها من الدعاء بهطول المطر، وأصوات الأغنام التائهة فى شوارع القرية بلا هدى، وتلک التى فى الحظائر، لا يوجد أجمل من ذلک الحوار الدائر بينهما، حوار غامض محير، ترى هل تريد الأغنام بالخارج الدخول؟ أم تريد التى بالداخل الخروج؟ أهذه تطلب الحرية؟

أم تلك تطلب المأوى؟!

نفخ الكيس صدره وانطلق مع الهواء، يعلو تارة ويهبط أخرى، مخلفاً دوائر ومربعات فى الجو، يتوقف عند أسلاك أعمدة الكهرباء يجادلها حتى يمل، ويرحل دون إذن، قد يدخل فى سباق مع سيارة، ثم ينسحب من السباق غير آبه بنهايته، يخيف الأطفال فى الليل ويطاردهم إلى بيوتهم، يمضي متجولاً فى شارع الأسفلت دون خوف من التعرض لحادث سير، لا يدرس الاحتمالات ولا يفكر فى عواقب، لم يكن يدرى المسكين أن شجرة السدر ستوقف انتماءه للريح وامتهانه للسمو.

انتصبت شجرة السدر بزهو وبرود فى طرف الحوش، كانت باردة في جدلها مع كل ما حولها، لا تحركها إلا تيارات الهواء القوية، جادة، عابسة الوجه، حادة الشوك، لم يكن موسم إثمارها قد حان، وحتى ظلها كانت بخيلة به فتنثر عليه شوكها بحرص.

صوت السيارات يعلو ويختفي، اشتعل الهواء قليلاً، وارتفعت أصوات أطفال يلعبون فى الشارع، وصارت الأشجار تتمايل يمنة ويسرة، وتناثرت الطيور فى الأشجار، كأنها في يوم

عيد منتظر، موسيقى جميلة كانت تسرى فى روح الأشياء وتنفض الغبار من على السطح، قمريتان على غصن البان، بدتا مندمجتين مع الطبيعة، ذاك الرجل بجلبابه القصير ممتطياً صهوة حماره وممسكاً بعصى معقوفة، وقد لف عمامته ببراعة على رأسه، بدا لي أكثر عمقاً من الطبيعة، أشجار تتمايل والعصافير والناس، وحتى ذاك الكيس الطائر، وفجأة توقفت الدنيا في لحظة، لما علق كيس البلاستيک فى شجرة السدر، بهتت الأشياء، توقفت الموسيقى التى كانت تسري، حتى القمريتان صارتا مجرد ذكرى على غصن يابس، ومزاجي المستقر قد تعكر، كل شيء دخل فى سكون غريب إلا الكيس، علق الكيس في أعلى الشجرة يرفرف طالباً النجدة، اعتراني الغضب فذهبت لتحريره، كشرت الشجرة عن شوكها محذرة من الاقتراب، تراجعت قليلاً بل كثيراً ولم يتوقف الكيس عن المقاومة، ظل يرفرف.. لعل رفرفته توافق ساعة إجابة، ابتعدت قليلاً، وقفت، انزعجت، التفت إليه وقلت: آبتشوف؟

عندما انقطعت «نبلتي»..
كتَبَ اللهُ عُمراً جديداً للطير

القمرية

كملكة حكيمة، اتكأت على عرشها الغصن الأخضر، واثقة من نفسها، هادئة، صوتها المنساب، صلاة عند المتدينين، وموسيقى شجن للحزانى، وشقشقة طروبة للفرحى، وقلق لذوي المزاج المكتئب، أما بالنسبة لمدثر فهي لا شيء، ولكنها بالنسبة لنا نحن معشر الفتية الصغار المتربصين بها، فهي مشروع غداء لذيذ منتظر.

اتكأت على غصن البان، تعزف لحن الصباح المعتاد، سمعته وأنا تحت البطانية، أزعجني وأطربني والأهم من ذلك منحني ألف ذريعة لأقوم باقتناصها، وهي الصعبة المنال، فهي حسب تقديرنا، ذكية تحس بنوايا الشخص المتربص بصيدها قبل أن ينوي، لذلك عندما أنوي صيدها،

لم أكن أنوى أن أصيدها بل أنوى أن أصيد ود أبرق مثلاً، إذن أنا الذكى ولستِ أنتِ أيتها القمرية الساذجة.

عندما أكون متربصاً بقمرية لاصطيادها كنت وكأنى أقوم بدور ليس دوري، فاصطيادها يتطلب الهدوء والسير بخطوات بطيئة حذرة، وهو يتناقض مع طبيعتي عندما كنت صغيراً، ولكنها الضرورة، فأسير برفق واقتصد فى الشهيق والزفير، متمنياً أن تحنو الريح على نفسها وعلى الغصن آملاً أن يكون فى بال القمرية شيء يشغلها عني، فلا تحس بى وأنا أحمل نبلتي الحميمة متجهاً صوب لحظة مقدسة.

هي القمرية، ملكة حذرة تعلم بنواياك قبل أن تنوي بها، تسمع صوت خطواتک كقرع طبول، وتطير مبتعدة عندما تصل نسبة نجاحک فى اقتناصها إلى ذروتها.

ود أبرق

أهوج متهور، وقد لا تحتاج أن تضربه لأنه عادة هو الذى يرمى بنفسه للحجر المقذوف من نبلتک، كثير التلفت وكأنه يستهين بک أو لا يستهين، بل هذه طبيعته، ولكنه فى الحالتين يلقى عليک عبئاً كبيراً من الثقة فثقته فى الناس حد الجنون جعلتنى منهزماً أمامه خائفاً من أشياء كثيرة لا

أعرفها.

عادة ما يكون هذا الطائر الأرعن هدفاً للمبتدئين، أو تجربة لصلاحية النبلة أو لبدء يوم صيد، أو مجرد هامش فقط فهو أصلاً لا يؤكل إلا لضرورة قصوى، ولكنه فى أغلب الأحيان طائر مزعج بالنسبة لي يأتي لك فى ليلة شتوية فى غرفتك، ويستقر على خشب السقف ويزقزق، تستيقظ من نومك ثم تشتمه ولا شيء يحدث، تقوم ثم تقلده آملاً أن تخيفه ولكن تبدو لنفسك لوهلة أنك أبله، وهو إذ يستمر فى غنائه غير آبه لك وكأنك غير موجود، تنظر إليه وكل غضب العالم قد تجمع فى عينيك، تحتقره وتمسك بحذائك وترميه عليه، فيغير مكانه ويحط على خشبة أخرى وكأن باعوضة قد حطت عليه فانزعج، ثم تتحاشى الآن النظر إليه منهزماً غاضباً محتقراً نفسك فهو أعلى منك ولا حيلة لك.

استيقظت صباحاً باحثاً عن نبلتي، وما أدراك ما نبلتي، عودان يلتقيان كما يلتقى النيلان فى منطقة المقرن، ثم يصيران واحداً، رقم سبعة استقرت قاعدته على رقم واحد، ثبتت قطعتان رقيقتان من المطاط بإحطام بأعلى فرجتي

العودين، قطعتا المطاط يفضل أن تكونا من الأستك الداخلي لكفر السيارة أو الدراجة لمرونته وقوته عند شد وتره، تقفل دائرة النبلة بالجلبة وهي غالباً قطعة جلدية صغيرة، وهي التى يوضع فيها الحجر، السهم الذى يحقق الانتصارات.

كانت النبلة عندي أكثر أهمية من كل ما ذكرت، فكفرات السيارات لم تصنع إلا لأقطع منها شرائح لنبلتي، وما فائدتها إذا لم تهبني ذلك، وهي أكثر أهمية من أسلاك الكهرباء التى نقطع منها أسلاك النحاس لنحكم بها ربط أجزاء النبلة مع بعضها البعض، فيا لعجائب الدنيا، أنظر كيف لبعض الأسلاك والقطع المطاطية أن تصنع شيئاً عظيماً كالنبلة ترهب الطير فى كل مكان ولا يفل الطير مثل النبلة.

.....

قفل حاج أحمد دكانه وذهب لينام فى قيلولته اليومية، وتوقفت غنيمات جدي فى الحظيرة عن الثغاء، ربما جاء جدى وسقاهن ورمى لهن بعض البرسيم، وربما لم يأت جدي فى موعده اليومى فتوقفن عن الثغاء احتراماً للوقت، وربما بعدت أنا عنهن إذ كنت أمشى فغاب عني صوتهن، وتوقفت الحافلة التي يبدو على ركابها الضجر، إما بسبب

الحر الشديد إذ إن الصيف قد دخل قبل أيام معدودة، وإما غضباً من السائق العصبي.

توسطت الشمس السماء، ومع دخول النهار كان هناك صباح مجازى يطلع لأولاد لا تجيد الأحداث نسيانهم مثلما نسوها هم وهم يجهزون فى نبلهم لبدء جولة صيد جديدة.

تحت ظل شجرة الليمون فى بيت خالي، كنا قد جلسنا نعد فى النبل لجولة الصيد، كانت نبلتي عزيزة على أكاد أحتضنها، ففي لحظة تبدو فخراً لک بين الأتراب، وتحفظک من سخرية الطيور ورقصها على الأغصان، والآن الكل يهتم بنبلته لنظفر بغداء لذيذ، فكأنها اصطدمت أحلامنا الصاعدة لأعلى بالأشجار التى حولنا فى بيت خالي، فخلت تلک الأشجار من الطيور وخرجنا نحن إلى الشارع.

كنا كعلبة فيها حجارة قد سقطت على أرض هادئة، تحدث الضجة أينما ذهبت، ثم صرنا نسير بحذر وهدوء كى نفاجئ القماري، البعض يذهب من هنا والبعض من زقاق آخر، يرتطم الحجر بالغصن أو بباب أحد المنازل محدثاً صوتاً، فيهرب النابل (الولد الذي أطلق الحجر من النبلة) ضاحكاً، وتصحى قيلولة المنزل مفزوعة.

يحبو الولد ببطء أسفل الحائط المجاور لشجرة كبيرة، تتبختر القمرية على أغصانها ثم يرتفع الولد لأعلى ويطلق الحجر من النبلة، تطير القمرية إلى أعلى وتختفى ويقسم الولد أنة قد أصابها، فيضحك البقية مستهزئين "هل نسيت القمرية أن الولد لم يصبها إلا لكي تسقط".

يقتحم الأولاد بيتاً كثيف الأشجار ثم يخرجون راكضين ووراءهم صيحات الوعيد، حظيرة الأبقار كانت هدفنا التالي، فهي جاذبة للقماري ولنا كذلك، وصلنا وتربصنا بالطيور الآمنة المطمئنة، فاتخذنا أماكننا وحزمنا خطتنا على أن نضرب ضربة واحدة مفاجئة، وبينما كنت أشد نبلتي لأطلق الحجر انقطع أحد أوتارها المطاطية محدثاً صوتاً كان كافياً لأن تطير القمارى وتفر بجلودها.. لذلك لما انقطعت نبلتي كتب الله عمراً جديداً للطيور.

انتهت جولتنا بعد أن ظفرنا بخمس قماري، لم يكن قدر طموحنا، انقضى نهار اليوم ولكننا نحمل الكثير للغد؛ قيلولته ونهاره وطيوره.

جعران.. ذو حالة خاصة جداً!

لم يكن فى الأمر غرابة ألا أستطيع – وفى تلك اللحظة بالذات– تحديد موقعي فى هذا العالم.. أو حتى الزمن، كانت لحظات من نشوة تمر متسللة من ثقوب الثواني، كأن الشمس قد غربت دون أن يبتلعها الجبل، مخلفة ضوءها بكامل بهائه وسنائه، أو كأنها تشظت إلى قطع بيضاء صغيرة اكتست بها الأرض المفروشة حولنا، كانت السيارة تنطلق بأقصى سرعتها فى الطريق الرملي تجر خلفها ثورات صفراء، يلطمني الهواء على وجهي حيث أقبع في صندوقها الخلفي، دون أن أغلق عيوني للحظة؛ "فالجمال من حولي كان أقوى من الهواء المشتد"، أخذت أترنح مع السيارة يَمنة ويَسرة كأنني أرقص كما مهجتي، الوضع ببساطة كان كمهبط دائم لوحي الجمال، وكأن الأرض هنا صارت سماء

للسماء.. فكيف بدأ الأمر؟ كيف بدأ؟!

فى الخلاء الغربي، على بعد كليومترين أو ثلاثة من قريتنا، أو ربما أكثر قليلاً أو كثيراً.. لا أدري؛ "فضباب الجمال قد حجب معيار المسافة عن عيوني"، بدا المشهد مهيباً منذ البداية؛ فالشمس قد دقت وتدها في منتصف السماء بالضبط، ضوؤها السلسبيل يشع على الجبل أمامنا فيبتعد كلما قربنا منه، وشريط أبيض رقيق صار يقترب شيئاً فشيئاً، كانت أول مرة أسافر لتلك المسافة فى الخلاء، وأول مرة أيضاً أحس بمثل تلك النشوة، كلما اقترب ذلك الشريط الأبيض تخيلته سماء، فنهضت واقفاً وشمرت عن ساعدي مستعداً للطيران، بدا لي نهراً ثلجياً هادئاً فآثرت السباحة، كنت مستعداً لأي شيء فى سبيل متعة الروح هذه.. فلم يكن الأمر متعلقًا إلا بالروح.

دخلنا فيها.. أو دخلت فينا.. المهم.. كانت حشائش نمت بينها شجيرات سيال متباعدة زاهدة في الحياة كحالها، حشائش بيضاء كزهر اللوز، ناعمة تلاعبها الريح كحرير مائي، تنمو على الرمل فتبدو كبساط من السحاب يشعر فيه الماشي كأنه يتمشى فى فضاءات روحه، نسيت حينها

من نحن وما الذي أتى بنا إلى هنا، أو أننا جئنا بمعاولنا لنملأ السيارة بالرمال ونعود من حيث أتينا.. أو أننا جئنا، بدا الأمر حلمًا داخل حلم، إلى أن توقفت السيارة فجأة عندما غاصت كفراتها فى الرمال، وبطبيعة الحال فرحت كما لم أفرح من قبل، ولم أتردد للحظة في ارتكاب هذا الفرح، فما أجمل أن يتعثر المرء فى جمال كهذا، بدأ الأمر وكأنها أجمل مشكلة تمر بي في حياتي.

ليس بعيداً عنا.. اضطربت حبيبات الرمل قليلاً، ثم بدا وكأنها قد شفطت نحو الأسفل، ثقب صغير يحاول جعران أن يخرج منه، كان بطيء الخطوات، رفيق بحبيبات الرمل وكأنه يحاورها حتى استطاع الخروج، مشى سريعاً على هدى استشعاره، متخبط الخُطى وكأنه يعرف أن شيئاً غير عادي قد حدث فى فناء داره، صعد تلاً رملياً صغيراً ثم وقف والذهول بدا واضحاً على قرنيه ورجليه ؛ فقرناه ثبتتا على غير العادة، وارتخت أرجله الخلفية عند رؤيته للسيارة الكبيرة وقد غاصت فى الرمل، ثم حرك قرنيه قليلاً كرادار ، بينما كنا نحاول إخراج الرمال عن طريق كفرات السيارة، ثم نحاول دفعها للخروج من قبضة الرمال، نزل من التل ومشى صوبنا

قليلاً ثم تراجع عندما رأى فشلنا، بدا الأمر غريباً بالنسبة له، صبية يحاولون دفع شيء كبير – والدهم ربما – غرقت أرجله فى الرمل، فكما كنا غرباء على هذا الخلاء.. كنا كذلك قرباء على قرنى استشعاره فلم تعتادا رؤية أمثالنا من المخلوقات فى هذا المكان.

جعران.. ولا أعرف له غير هذا الاسم، اسم مكفهر ليس كأترابه من الحشرات ذوات الأسماء الرنانة مثل أبو الزنان، الخنفساء، العقرب، أبو الجندب.. وكأن هذا يفسر الغضب الدائم على وجهه عندما تدقق فيه النظر، أسود اللون عنيد الخطوات لا يوقفه شيء، ويقال فيما يقال فى جلسات سمر الأطفال إنه خادم أمين للعقارب؛ فما تواجد في مكان إلا وتواجدت فيه عقرب إذ تستخدمه لمراسيلها وقضاء حوائجها، ولكن ما فحوى تلك المراسيل السرية الغريبة التى توكلها العقرب للجعران؟ هذا التساؤل لم يرد ضمن أسمار جلسات الأطفال، ولكن لكى أصارحكم رأيي فى هذا الموضوع فهو خدعة أو إشاعة أطلقها الجعران ليدرأ عن نفسه أذى الآخرين؛ فبما أنه مرسل من قبل العقرب – وما أدراك ما العقرب؟– فأبو الزنان يطير وأبو الجندب يقفز وأما الجعران

ليس لديه من وسائل الحماية إلا بمثل هذه الإشاعة.

بدا الجعران فى تلك الظهيرة واثقاً شجاعاً عازماً أكثر من "الجعارين" التى أراها غالباً فى قريتنا، ربما ظهر لي الفرق جلياً بين جعران الخلاء وجعران الحلة، الأول يعتمد على نفسه والثانى يعتمد على العقرب، لمحت نظرة جادة تبدو في وجهه وهو يتحرك يميناً ويساراً فيتطاير من مشيته القلق والاستياء، ورأيته يقترب شيئاً فشيئاً منا ثم يتراجع مسرعاً إلى جحره، يخرج مرة أخرى فيفزعه صوت السيارة فيترجع مسرعاً، بدا لى وكأنه يتفقد جحوراً قد حطمتها السيارة، ربما تكون جحوراً لبعض أهله وأقاربه، أصبحوا في لحظة تحت الأرض وبلا منفذ، يتخطفهم الموت.

أفزعني صوت رفيقي عندما صاح:

– "بتعاين فى شنو انتا!. أسرع نرفع الرملة فى الدفار دا عشان يتقل ونقدر نطلعو من هنا".

قمت فوراً وتركت الجعران فى مجيئه ورواحه، معول ومعولان ثم نسيته كما ينسى عجوز خرف الأشياء، أو كما ينسى عازم سؤال عاجز، نسيته وكأن شيئاً لم يكن، ملأنا الدفار بالكمية التى نحتاجها من الرمل بيد أننا ما زلنا عالقين

هنا، بل وقضينا جل الظهيرة متكئين على الدفار تحت ظله القصير في انتظار قدوم دفار آخر لنجدتنا، وقد وصل أخيراً ووفر لنا قضباني حديد وضعناهما أمام الكفرات المنغرسة فى الرمل فخرج أخيراً معلنا انقضاء ظهيرة اجتمعت فيها التناقضات؛ الجمال والمشاكل، راحة البال وتعب الجسد.

لم أتذكر الجعران، لم أتذكره ولم يخطر على بالي مطلقاً، ولا أظن أن ذاكرتي ستحتفظ بمجيئه ورواحه أو قلقه ضمن ما ستحتفظ به من أشياء عن هذا المكان، فقط نسيته كما ينسى عجوز خرف الأشياء أو كما ينسى عازم سؤال عاجز نسيته وكأن شيئاً لم يكن.

غادرنا المكان واتجه الدفار بأقصى سرعة صوب الشرق، حيث قريتنا، ولكنى غادرته بتمهل، وقفت فى قلب صندوق الدفار أراقب ذلك الخلاء بكل أحاسيسي، أراقب جبلاً تقترب فيبتعد.. تبتعد منه فيقترب، واعوجاج سيقان أشجار السيال التي تبدو كدوامة صامته.. ثابتة.. ليس لها رغبة الالتهام، والحشائش البيضاء التى بدت من بعيد كنهر ثلجي هادئ، ثم كسماء صافية ثم كخيط أبيض رفيع.

جلست على حافة الدفار لما بدأ الخيط الأبيض الرفيع فى

التلاشي شيئاً فشيئاً ونحن على مشارف قريتنا، لمحت عيني فيما لمحت الكثير من الأشياء بيد أنه لم يبق منها فى رأسي سوى شيء واحد.. جعران فى كومة الرمل التى فى منتصف الدفار يحاول جاهداً حفر ثقب فيها.

"من منا ارتكب هذا الخطأ الحضاري فى حق الجعران؟"

تساءلت وأنا على حافة الدفار كورقة فى مهب الريح، كبيدق شطرنج مهدد من كل الجهات، تأملته جيداً.. قلقه الصغير.. خوفه اللامرئى.. صمته عن الأسئلة.. وهو يواصل الحفر فى كومة الرمل على ظهر الدفار، شتتت بصرى بعيداً عنه ولم أحتمل المزيد من هذا المشهد.. "عم تبحث أيها الجعران في هذا الكوم الصغير؟ أتعتقد أنك فى الوطن؟ أتعتقد أننا ما زلنا فى تلك السهول الواسعة؟ أتحسب أنك ستجد مأواك لو واصلت الغوص فى تلة الرمل داخل الدفار؟" ترى ماذا سيفعل عندما يصطدم بأرضيته الحديدية الصلبة في قاع كومة الرمل؟ ماذا سيحدث له حين يكتشف الحقيقة؛ أن ما يحفر فيه الآن ويعتقد أنه الوطن ما هو إلا كوم رمل صغير على ظهر دفار يجري بأقصى سرعة فى طريق مجهول النهاية؟

حاولت أن أوقف نافورة الألم التى فتحها هذا الجعران بداخلي، حاولت أن أوصد نافذة الأسئلة الكثيرة المتدفقة، حاولت أن أسامح المجهول الذى التقط بمعوله الجعران ليرميه هنا فى هذه الحياة الرمادية "والذى ربما يكون أنا"، نظرت إلى رفيقي الراكب معي في صندوق الدفار، إلى عينيه المغمضتين جراء الهواء، ثم ضحك من منظري البائس، تجاوبت معه وابتسمت ثم حاولت أن أكون مثله، أن أترفع عن هذه الآلام، وأن أنسى مأساة هذا الجعران، إنه فى النهاية حشرة فقط لا أكثر، لكني لم أستطع أن أقاوم حين التفت إليه مرة أخرى فوجدته واقفاً على قمة تل الرمال ووجهه المخروطي الصغير متجها إليّ كأنه يقصد النظر لي أنا بالذات.

اعترفت عيوني بكل شيء حينها ولم تبرئ نفسها، "إننا شركاء المأساة أيها الجعران وشركاء في الهزيمة، إنهم يفعلون لنا مثلما فعلنا نحن بك يا جعران، أنهم يختزلون لنا الوطن مثلما اختزلنا وطنك وبدلنا لك كل تلك السهول بهذا الكوم الصغير، إننا نأكل من باقي الطبق ونشرب من باقي الكوب كما تسكن الآن أنت باقي الرمال، لذلك يا صديق

الألم.. لا أملك ما يكفى من الحرية لأحررك".

غفوت مع هذا الوجع الفكري كثيراً، ولم أنتبه إلى أن الدفار قد شق شوارع القرية ثم توقف ورمى رفيقي المعول بجانبي قائلاً:

– "يا سارح إنتا ياالله ننزل الرملة دي".

ألقيت نظرة خاطفة على كوم الرمل ولم أجد الجعران، فتحنا باب الدفار ثم بدأنا ننزل فى الرمل ثم ننقله إلى داخل البيت، ولم أنس ذلك الجعران، لم يفارقنى بؤس وجهه للحظة، لم تبارحني مشقة الأسئلة ولم ترتح مخيلتى عن رسم صورته، خصوصاً بعد أن انتهينا من نقل الرمل.

فجأة لمحت الجعران يجري متخبطاً في منتصف الحوش لا يدرى أي جهة يقصد، نظرت إليه ببؤس الضحية لقاتلها لا بعين القاتل لضحيته، الجعران الذى كان يرتع فى تلك السهول والبراري كيف يجد نفسه فى غفلة من الزمن بين هذه الجدران الغريبة والأزقة الموحشة؟ كيف يستأنس هذا العالم الجديد الذى لا يرحم؟ كيف يتحول دون أى مقدمات أو تنبيه سابق من جعران خلاء إلى جعران حلة؟ وأي قسوة فى قلوبنا جعلتنا نأتى به ونرميه هنا ثم نمشى فى حالنا وكأن شيئاً لم

يكن؟ أي خطأ حضاري ذاك الذى وقعنا فيه؟ أي جرم ذلك الذي ارتكبناه بحق النظام الكونى؟.

استغرب صديقي حد البلاهة من ردي عندما صرخ فى قائلا: "بتعاين فى شنو إنت؟!".

نهضت من الأرض والتفت إليه وقلت:

"جعران".. ثم أعدت النظر إلى الأرض وأكملت فى سري: "ذو حالة خاصة جدا".

ذهبنا لتناول الغداء بعدها.. تآنسنا قليلاً.. ضحك صديقي كثيراً، وقال: "بالله قاعد بتعاين فى جعران".. بادلته الضحك.. دخلنا.. خرجنا.. حاولت أن ألهي نفسي وأشغلها.. فى النهاية هو ليس إلا مجرد جعران صغير لا أكثر.. ثم فى منتصف الليل وأنا غارق فى النوم.. رأيته فى الحلم.. ذات الجعران بوجه أشد غضباً... علت أنفاسي وبدت دقات قلبي واضحة.. كان ضخم الجسم أكبر من بص سياحي.. يجرى من بعيد نحوي.. بدأت فى الجري مذعوراً.. أجرى ويجرى خلفي.. اقترب كثيراً.. كاد أن يمسك بي.. ولا أذكر أني توقفت عن الجري.. حتى بعد أن استيقظت من النوم.

الحنين إلى الريح

نهضت من النوم متثاقلاً بائساً مثلما خلدت إليه، دون أن أكمل حلماً قد راودني فيه، أو بالأحرى كان كابوساً طفق يقلص احتمالات ربيعي الهش، ورغم ذلك كنت أستقبله بحفاوة ثم أجلسه وأغني له أغنية ما قبل النوم، فيحلم بي كابوساً وينهض مفزوعاً، عقارب الساعة تندفع نحوي فلا تجد إلا شبحاً من الأوهام تلسعه، ثم أتحرك من سريرى لأبحث عن صباح بعد آلاف الليالى، فأشعل سيجارة أولى ثم أخرى وأنفث دخانها وبضع هموم، ثم أتنقل فى غرفة ضيقة لم تسع حتى هذا الدخان، فتحت النافذة فوجدت سلسلة من الجبال تركض.. "مهلاً لِمَ أنسى أنى فى غرفة من غرف القطار، لِمَ أنسى أنى مسافر فقط.. صدقت حلماً وخشيت أن يكذب على".

إلى أى مدينة يتجه القطار؟ لم يكن يهمنى كثيراً، فكل

بلاد الغربة متشابهة، رغم اللغات الكثيرة والوجوه والسحنات المختلفة، والقطار يسير وعلى ضفتيه أراض خضراء جميلة تتخللها الأشجار وسلاسل الجبال البعيدة، ثم يدخل القطار أرضاً جافة كما الصحراء وأحياناً البحر، هذا هو السفر يعطيك كل ما فى خيالك من فاكهة فى كوب واحد ولكنه بلا طعم، فالمناظر رغم جمالها باهتة ومهما كملت الأشياء فهناك دائماً نقص ما، فكيف لى أن أكمل حلمى؟

مثل أول سيجارة دخنتها، كذلك كانت أول سفرة، لم أقلع عن التبغ ولم أترك السفر، أدمنته كأي شيء آخر لا أحبه، ولكني أمارسه رغماً عنى، فى يدى أن أتركه ولكن شيئاً ما وراء تلك الجبال يدعوني للسفر، إنه كالحب الذى يوجعنى لفتاة كنت قد أحببتها يوماً من الأيام ومازال في القلب باقيًا.

أغلقت النافذة ثم لبست معطفى البنى وقبعتى الحمراء وخرجت من الغرفة لأجلس مع المسافرين وأستمع للكلام العابر، وكوب قهوة أنقذت به ما تبقى من صباح، والمسافرون يتجادلون فى أمور كثيرة، المدينة السابقة والمدينة المنتظرة، والمناظر الخلابة خلف النافذة والنادل الأحمق الذى تشاجر البارحة مع أحدهم والذى ما يزال يحمل أثر لكمتى فى

وجهه، جلست أنا فى أحد الكراسى أراقب فتاة جميلة.

لم أولد وأنا مسافر بل نشأت فى بيئة اشتهرت بالثبات والاستقرار على أى شيء، لا يتغيرون مع الزمان، حتى آمالهم لا تتغير ولا تكبر، أحياناً تضمحل مع تقدم العمر، ونشأت مثلهم وحلمى لم يصل إلى سقف بيتنا المتواضع، ومنذ أن سافرت ولا شيء يزعجنى غير الضباب القابع فى المرآة فلا أرى نفسي.

"هل تعرفين أنک جميلة؟" هكذا قلت للفتاة الجميلة بعد أن جلست أمامها فقالت:

– الكثيرون يقولون ذلك.

– وماذا تقولين أنت؟

– لا آبه لذلك.

– منذ متى وأنت تسافرين؟

ضحكت وقالت

– منذ الأمس فقط وحدي بالمدينة القادمة.

– عيناک لا تقولان هذا.

– وماذا تقول؟

– فى عينيک مطارات كثيرة وقطارات أكثر ومدن صاغها

الخيال.

ومنذ أن وقف القطار عند المحطة لم أر هذه الفتاة ثم انصرفت إلى جهاتي المبعثرة.

خمس دقائق انتظار فى مطعم أحد المطارات تخلد فيه للراحة والتفكير العميق يظلل وجوه المسافرين معک، هذا هو معنى الاستقرار عندي، فقد أدمنت رائحة المطارات وأوجه المسافرين الباهتة وعشق فتاة لخمس دقائق عند المطار ثم الدخول فى دوامة الريح والسفر.

منذ أن غادرت بلدي لم أعد إليها، ولم أتطلع لأخبارها، تزوج فلان ومات فلان وحدث كذا، أخبار كنت أسمعها كأي خبر أقرأه فى صحيفة دون أن آبه به، إلا مرة واحدة فى إحدى الليالى عندما كنت أتجول على أحد الأرصفة والبرد يرسم بعداً ثالثاً للهزيمة، حدت بي رغبة كبيرة لمكان دافئ، نظرت حولى فلم أجد شيئاً، حاولت البكاء فتجمد الدمع في عيني، قررت أن أعود إلى بلدي وأبكى براحتي.

كان المطار قاتماً هذه المرة، وفى قلبي أشياء كثيرة من ضمنها حنين جارف إلى الوطن، ولم تصل أشواقى السماء ولا استقرت بالأرض كما هذه الطائرة، أى شيء هذا؟ هي

حرارة التفكيرة بالعودة إلى الوطن؟ أخيراً سأعود لبلدتي القديمة وبيتنا الكبير، أخيراً سأخرج من أزقة المطارات؟ رجفت الطائرة قليلاً ثم استقرت، لن أبكى عند الوصول، فقط سأسلم عليهم وكأننى لم أفارقهم إلا البارحة، لن أقفز فوق ذبائحهم ولن أقبل بأن يسمونها كرامة، فقط سأنام قليلاً، هكذا قررت.

أعلن من صوت الميكروفون بالطائرة التزام الجميع بوضع الاستعداد للهبوط، انتابني حنين عميق إلى شيء غامض، استعدوا للهبوط، لم أكن مستعداً رجل خلفي ردد بعض الآيات، وطفل أمامى بكى، حطت الطائرة على أرض مطار الوطن، وأقلعت بعد ساعة دون أن أبارحها.

ليست كالقمر

فى أول الليل، على جدار المدينة المبتهلة، أسندت ظهري ثم جلست على الأرض نافثاً هواء يوم شاق، لم أكن أفكر فى عظم الفرق بين أطفال يستمتعون بجمع الكرات واللعب، وبين أطفال يستمتعون بجمع فارغ الرصاص، بعد يوم مليء بالحرب، لم أفكر فى هذا، فقد كنت غارقاً في التطلع لأعين رجال يغادرون المدينة للذود عنها، كنت محتاجاً للتفرس فى وجوههم الباسمة، فلم تكن لديهم الحاجة إلى معرفة هل سيعودون إلى المدينة أم لا، لم يكن يعنيهم الرجوع بقدر ما يجذبهم موقف اللحظة وهم يمارسون كما المدينة حلمهم الرائع، لا يهمهم النصر أو الهزيمة، العودة أو الغياب، فقد كان الحلم أعظم من أن تكال نتائجه بمقاييس كهذه، فالانتصار يعني الانتصار، والهزيمة لا تذكرهم سوى بالانتصار القادم، وهذا ما فطن إليه أحد ضباط الأعداء

قبل أن يقدم استقالته، حين علل ذلك بقوله: «أولئك الناس يرون مع الرصاصة أشياء كثيرة جميلة تخرج من فوهات بنادقنا».

عند مدخل الممر الذى لاذ به بعض السكان تذكرت صديقي الذى قال لى: "ستجد الحب فى هذا الممر.."، تقدمت خطواتى في الممر، ولم تثقلها بندقيتان أحملهما، كان الممر قد ضم بعض النساء والأطفال والشيوخ وبعض المصابين ورجلا هادئًا كمنقطع في صلاة، وقد علمت فيما بعد أنه رجل هادئ فى كل شيء، لم يكن يحب العراك وضجيج الرصاص والمدافع، كان يؤيد ما يقوم به الساسة من تفاوض، كان يحلم بالسلام الآمن مع الأعداء، وكان أيضاً يمارس صلاة سرية خاصة به يستدعى ويستعيد بها الهدوء دائماً كما يقولون، وبعد فترة ليست بالطويلة وفى أحد النهارات الحزينة وجد فى بيته جالساً على الكرسي عندما كان يستعيد هدوءه المعتاد، لكنه كان قد هدأ أكثر من اللازم وبالغت دقات قلبه فى الهدوء إلى أن سكن جسده إلى الأبد.

الأمر الذى لم أعرفه إلا بعد مدة طويلة أن هذا الرجل

المسالم كان من قادة الجهاد فى العقد الماضي، شديد البأس مع الأعداء قوي النفس عنيفًا جلدًا، قد تكاثفت عليه الإصابات وقطعت رجله التى عوضها برجل صناعية لم ألحظها عندما كان حياً.

وأيضاً فى الممر جلست مليحة حاذقة الجمال تبدو فى مطلع العشرين من عمرها، تكسو عينيها الجميلتين مسحة حزن دون أن يضطرب هدوؤهما، وقد قال لي صديقي لما سألته عنها إن جميع أفراد أسرتها قد استشهدوا فى غارات الأعداء وإنها وحيدة حزينة دوماً، ورغم جمالها وتطلع الرجال للزواج منها لكنها لم تقبل الزواج أبداً، "مأ أجمل الحزن في عيون الفتيات الجميلات! ألا ترى أنها كالقمر تماماً؟ ما فهمته لاحقاً أنه لم يكن يقصد أنها كالقمر فى الجمال بل كالقمر فى الوحدة والانعزال، وحيدة تمارس حزنها على من فقدت.

لم يزل الممر عميقاً غارقاً مكتظاً بالآلام والآمال، فطفل وليد يبكي وطفل مصاب، وشيخ هرم وامرأة صابرة الملامح تحمل فى نفسها ما يضيق عنه الفضاء ورسائل ووداع وترحيب وصلاة وأغان ووو..، وصديقى الذى أخبرنى بأني

سأجد فيه الحب، لم أكن أعرف أن الحب هو الموت القابع فى آخر الممر.

غرقت المدينة فى حلمها، وطفقت مدافع الأعداء تغتال أسقف المدينة وجدرها العتيقة، وبعد ساعات كانت قد اختفت فيها آثار الممر وقاطنوه ولم يرفع منهم يده ليحيا مرة أخرى إلا قلة، منهم أنا وتلك الفتاة القمرية، والأمر الذى لم أعرفه إلا لاحقاً أن تلك الفتات ليست كالقمر، سنتزوج وسننجب أطفالاً سيعيدون بناء المدينة ثم يذودون عنها، عرفت لاحقاً أنها ليست كالقمر أبداً بل سيلتف الأطفال حولها ليواسوا حزنها وسيبكون ويضحكون معها، أما الآن، وأنا أتحسس طريقى إلى ما فوق الركام، ولما نهضت واقفاً، لمحت باب المدينة الموصد – ودون أن يفتح – دخل منه الجنود العائدون من المعركة فجراً، ثم صعدوا إلى السماء.

حبات من مسبحة الوطن

قالت لي:

– أسوأ ما يواجهه الناس فى بلد تكاد تلتهب من شدة الحر، هو البرد والصقيع!

ومنذ ذلك الوقت لم نلتقِ، لم أفهم جملتها هذه ولكن من بحة صوتها واضطراب عينيها أدركت أنه الوداع، أدركت أنها تريدنا أن نفترق الآن، أحبها ما فى ذلك شك، وتحبني ما في ذلك شك، ولهذا لم أسأل عن سبب لهذا الفراق، فقط عرفت أن جملتها هذي التي افتتحت بها الحديث واختتمته تحتوى على كل شيء أحتاجه مستقبلاً لفض غموض هذا الفراق.

المدينة، مبعثرة المنازل، مبعثرة الطرقات، مبعثرة الآمال، أذكر حتى الآن أول يوم جئت فيه للمدينة، أنا من جئت ولكنها هي من اقتحمتني مخلفة خسائر كبيرة، كانت دائماً

شديدة البؤس، بؤس لا يظهر عندما نشاهدها من بعيد فتصبح حلماً لنا.

منذ أن استأجرت منزلاً واستقريت فيه كان لا بد لي من ولوج المطبخ، بيد أنى لم أكن أفقه فى فنون الطبخ شيئاً، فقررت شراء كتاب لتعلم الطبخ، المكتبة كبيرة مكدسة بالكتب الآمنة المستقرة، الواثقة بأن لا أحد سيوقظها من سباتها العميق، فما إن رآنى صاحب المكتبة حتى تهلل وجهه وقال:

– مرحباً مرحباً بالأستاذ، أخيراً أتى من يقدر القراءة، أي نوع من الكتب تريد؟ فلسفة أم ثقافة عامة أم روايات؟

ربما أغراه مظهري، ستكون خيبة أمله كبيرة إذا عرف أنى جئته أبحث عن كتاب تعلم الطبخ.

أخبرته بأنى سأبحث عن كتابى بنفسي، دخلت بين الرفوف الكثيرة، ولم تمر سوى لحظات حتى دخلت فتاة مليحة الوجه يانعة الابتسامة، وما إن لمحتها حتى استقمت مندهشاً، نظرت إليها دون أن تراني، فلما تقدمت هي أيضاً إلى داخل المكتبة اعترضت طريقها وقلت:

– مرحباً، أخيراً أتى من يقدر القراءة!

ابتسمت ثم قالت:

– شكراً لك.

ثم أردفت:

– يبدو أنك تحبين القراءة.

– بالتأكيد!

– وأى نوع من الكتب؟

– جئت أبحث عن كتاب تاريخ مختص فى حقبة معينة.

– جيد!

وأكملت فى سرى: "أي تاريخ هذا؟ ألم ينقض التاريخ ويذهب فى حاله"، ثم فاجأتني بالسؤال نفسه:

– وأنت جئت لأى شيء؟

ارتبكت قليلاً ارتباكًا لم أظهره فأنقذنى اسم كتاب فى أحد الملصقات على الجدار، فقلت:

– لقد جئت بحثاً عن كتاب مائة عام من "النزلة".

– من النزلة أم من العزلة؟

– نعم نعم.. من العزلة.

ضحكت الفتاة وقالت

– إنها رواية غابرييل غارسيا ماركيز الرائعة.

– نعم..إنها رائعة فعلاً..والآن سأترككك لكتاب التاريخ وأرجو أن نلتقي.

كلفتنى تلك الفتاة شراء هذه الرواية، مائة عام من العزلة التى انتهي بها المطاف إلى العزلة داخل درج مظلم ولكن هذه الفتاة كانت كنسيم بارد فى مدينة يلفها الصيف.

أصبحت هذه الفتاة شغلي الشاغل، وقضية الساعة عندي، التى أسهر على ضرب احتمالاتها وفرضياتها والبحث فى كيفية تمتين الأواصر بيننا، أو بالأحرى أصبحت أحبها، وفى الأيام التالية التقينا كثيراً، كانت تأتى وعلى عينيها نظارة كبيرة وفي يدها حقيبة صغيرة أثقلتها بعض الكتب، تجلس على الكرسي عليها آثار التعب فنرتاح كلانا على فنجانين من القهوة وتبادل الحديث، أخرجت سيجارة وأشعلتها فقالت لي: "ألا تعرف بأن إشعالك لهذه السيجارة هو هزيمة؟ ابتسمت ابتسامة باهتة ظاناً بأنها تمزح فأردفت: "مشكلتنا دائماً أننا لا نعترف بمشكلاتنا ولا نتجرأ على كشفها أمام أنفسنا، حتى البكاء، لا نبكي حتى لا يقول الناس إننا ضعفاء ولا ندرى بأن البكاء هو جزء من الاعتراف بالمشكلة وبداية البحث عن حل، فقط نبحث دائماً عن شيء يلهينا

عن واقعنا، شيء نعتقد أنه يبعدنا عن المشاكل، ولكن للأسف، ليست هذه الأشياء سوى هزيمة أخرى تضاف لقائمة هزائمنا.

كنت –وطيلة كلامها هذا– أمعن فيها النظر، ملأتني الحيرة من هذه الكلمات التى كأنها تخرج من فوهة ثائرة ونظرة حازمة فى عينيها وحزن متراكم، أكل هذا الكلام لأني أشعلت هذه السيجارة، تباً لهذه السيجارة اللعينة التي قلبت جو هذا اللقاء، أطفأت السيجارة وقلت لها: "حسناً إذا كانت هذه السيجارة قد أزعجتك فإنى قد أطفأتها"، وبعد قليل نهضت قائلة: "إلى اللقاء"، هل ما زالت حزينة غاضبة مني لأجل السيجارة؟! لا لا أظن أن السيجارة هي من شوشت مزاجها، وطفقت أطرح وأجمع فى أسباب هذا الانفعال الذى قادها لإنهاء هذا اللقاء، وبينما أنا متوجه راجلاً عبر الرصيف إلى مقر سكني، أدركت بأن شيئاً أكبر من السيجارة هو الذى قادها إلى هذا.

التقينا كثيراً بعدها فى مختلف الأماكن، عند المطاعم والمروج ومتاحف المدينة ذات المجد التليد، عند المكتبات ومنحنى النهر، عندما قالت لي ذات صفاء: "وطننا دائماً

يحتاج أن نحبه أكثر".. فقلت لها متلهفاً: "كما أحبك أنا"، فأمعنت فيّ النظر ثم قالت: "هل يجوز لنا أن نحب فى زمن كهذا؟" فقلت لها: "ليس من الجيد لنا أن نبكى على وطن باكٍ، فبالحب نستطيع أن نفعل الكثير"، فأمعنت النظر فيّ مرة أخرى بوجه متهلل ثم ابتسمت قائلة: "إذن وأنا أيضا."

– أنتِ ماذا؟

– أكن لك مشاعر جميلة.

هنا توهج النهر الباهت وابتهج، واخضوضرت المساحات أمامنا، وأينع ضوء الشمس، شاكراً ذاك الرجل الذى يعمل فى المكتبة إذ أعطاني هذه الكلمات التى قلتها لها عندما طلبت منه المساعدة، هذه الكلمات التى مكنتنى من مجابهة فلسفة هذه الفتاة وأسلوبها الذي عادة لا أفهمه، فأنا لم أكن أفهم معظم كلامها، ذاك الكلام الذي تقوله لى عن الوطن والواقع والسياسة والتاريخ والممالك القديمة، لم أكن أهتم لكل هذا الأشياء.. فقط أهتم بها هي.. ولم أبتهج للمتاحف والمروج الخضراء ومياه النهر الجارية إلا لأنى كنت معها وحسب.

المنابر تعج بالمتحدثين ذوي الأصوات العالية المزمجرة، البعض يسبون والبعض يمجدون والبعض ينصحون، وتأتى الصُّحف فى كل يوم لتعيد تعريف آلامنا الكثيرة، الأثرياء تضجرهم الأخبار المتوقعة البعيدة ويخافون من الخسارة أي خسارة حتى ولو مليماً واحداً، والفقراء يحملون على أكتافهم هم العشاء ويهربون من سؤال يؤرقهم: "كيف ومن أين؟" والشحاذون يبتسمون بين اللحظة والأخرى، واللصوص يستغفرون وتجار الكلام يمشون على خط شهادتهم ويربحون كثيراً، ولا توجد أنصاف أشياء فإما أن تكون شيئا أو لا شيء، وأنا فى المطعم لم يكن يهمنى من كل هذا سوى وردة قطفتها لأهديها لآنستى وفنجان قهوة عزز طقس مزاجى الرائع فى هذا اليوم، مزاجاً لم يعكر صفوه سوى شيء واحد يسمى الوطن.

الوطن ذاك الشيء الذى يطل لنا من نشرات الأخبار وصفحات الصُحف وكتب مدارس المرحلة الابتدائية، ذاك الشيء الذى كما قالت مدرستنا فى المدرسة الابتدائية إنه قد أعطانا كل شيء وله علينا دين مستحق، ذاك الذى تسابق الشعراء فى التغنى به وأبدع الكتاب فى وصفه، بيد أني

لم أر من الوطن شيئًا، أى شيء أعطاني الوطن؟ ألم تكن هي الصدفة التى جعلتني هنا، لم نكن أنا والوطن أعداء ولا أصدقاء، لم أحبه ولم أكرهه، لم أنافق كما يفعل الكثيرون لأقول إنى أحبه، ولم أحاربه كما الخونة، فقط هو كان وطني وأنا سكنت أرضه هو لفظ فى بطاقتى الشخصية أستعملها للدخول والخروج ولكن عندما التقيتها هذه المرة اتخذت علاقتى مع الوطن منحنى آخر.

كانت وطنيتها خانقة بالنسبة لي، صارت تتحدث كثيراً عن الوطن وحاله، وتلك الشعارات التى أسمعها فى التلفاز وعلى صفحات الصُحف، فما لبث أن قفز سؤال في ذهني فقلت لها: "هل تحبين الوطن؟"، قالت:"كثيراً"، فقلت لها: "هل تحبين الوطن أكثر من حبك لي؟" فنظرت لي باستغراب ثم ضحكت، وقالت: "بالتأكيد أنت تمزح!" فقاطعتها بلهجة جادة وحازمة: "لا تتهربى من السؤال هل تحبين الوطن أكثر؟" فقالت: "لا تحاصرنى هكذا، هذه أشياء مختلفة"، ولكني لم أترك رعونتى، فوجهت لها السؤال مرة أخرى ببعض الغضب فقالت: "نعم، أحب الوطن أكثر منك"، على الفور خرجت من المطعم.. "ما هذا الوطن الذى لا

يسأم من مضايقتي أبداً،لم يبقَ سوى أن يزاحمنى فى الهواء الذى أتنفسه" ومن هنا صارت علاقتى بالوطن علاقة غيرة، فأصبحت أرى الوطن شخصاً يخطف قلوب العذارى خائناً فرقنى من حبيبتي، شيئاً لابد من الاحتراس منه كثيراً.

رجعت لتلك الفتاة وتصالحت معها واعتذرت لها عن رعونتى، ولكنى لم أسامح الوطن، فما زال هو الشيء الثالث بيننا، ولطالما أردت أن أصارحها بكلام كثير، أن قلبها لابد أن يتسع لشيء واحد وهو أنا وليس أنا وذاك الوطن، ولكنها أراحتنى عندما سألتنى سؤالا اعتقدت أن إجابته ستزيل ما فى نفسي من هموم، عندما قالت:

– إذا خيروك بينى وبين الوطن، فماذا ستختار؟

فقلت لها دون تردد: "أنا ليس لى كبير شأن مع الوطن فأنتِ ما أريد فقط"، هنا استشاطت غضباً، فطلبت الإذن وذهبت، "ما هذا، فلكي ترضي عنى التى أحبها، لابد لي أن أحب الوطن أكثر، أنا أحب هذه الفتاة أكثر، أهذه خيانة لها أستحق عليها العقاب؟! هل فى حبى لها خيانة للوطن؟ ومن هنا أدركت بأن الكتب لا تحمل عناوينها وحسب، وليست الأشياء البسيطة فقط بهذه البساطة وليست وحدها

المدينة هي المعقدة، وليس المهم ما نراه، المهم هو ما لا نراه.

ومع مرور الأيام استمرت علاقتي ولقاءاتي مع الفتاة، ولم أتخل عن المد والجذر فى كراهية الوطن، ولم تتخل هي عن مبادئها، ومع كل خصام أتعلم أشياء كثيرة، وبعد فراقنا بأيام وعند مقهي فى طرف المدينة كان رجل عجوز يجلس مسترخياً على كرسي وشعره الأبيض يتدلى من تحت قبعته وتجاعيد وجهه تفضح اجتهاده في تجديد شبابه ونظارته تكتم عينيه الغائرتين، فى يده سيجارة قاربت على الانتهاء، وقد جلس معه البعض للاستماع لحديثه الجميل كما يقولون، سمعته يقول: "قبل أن أسافر من هنا تركتهم يبحثون عن إجابة سؤال صعب، وهو كيف ننتصر؟ وعندما رجعت الآن وجدتهم يجيبون على سؤال آخر.. وهو كيف ننهزم؟" اكتفيت من هذا الرجل بهذه الكلمات التى سهرت عليها فى ما بعد ليالي كثيرة، بهذه الجملة تذكرت تلك الفتاة وكلماتها التى قالتها لي عند فراقنا وبدأت أدرك أشياء كثيرة، ومع بداية فهمي لهذه الأشياء، أحسست بألم شديد وحب عميق لشيء لا أعرفه، وليس الوطن هو مجرد خط

مستقيم يسير معك لا تلاقيه ولا يلاقيك، وليس مجرد لفظ على ورقة، وليس مجرد أب روحى لك، وليس مجرد خيار ضمن خيارات متعددة يمكنك التنقل بينها، عرفت لماذا تركتنى الفتاة، ولماذا يموت البعض، ولماذا يبكى الناس، ولماذا يغني البعض، فهمت أن أمامي الكثير لأفهمه، كنت من شدة كراهيتي له أستمد الحب بخفاء، هنا أدركت شيئاً واحداً هو أني لابد أن آخذ قلمي ودفتري وأعود لكرسي الدرس لدراسة مادة لم أفهمها بعد وهي الوطن.

بعانخي..»خارج المتحف»

"ملك ملوك السودان القديم، مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين، وأول ملوك مملكة كوش بنبتة، وفاتح مصر، رمز التاريخ والحضارة التي هي من أقدم حضارات العالم.. إنه الملك النوبي العظيم بعانخي".

قالها المرشد السياحي متبختراً يكاد يرقص بين كل جملة وأخرى أمام مجموعة من زوار المتحف القومي، وفجأة انقذف قلم من وسط المجموعة ليرتطم بتمثال الملك بعانخي فتضطرب عيون الجميع وتبحث عن الفاعل وقد كان طفلا صغيرًا فى وسطهم، صاح المرشد بصوت حاد قائلاً:

– ما الذى فعلته أيها الطفل؟!

فقال الطفل بصوت هادئ:

– أيحس بضربة القلم هذه؟!

استغرب الجميع وكذلك المرشد وانخفض صوته قائلاً:

– لا.. لا يحس بالتأكيد.

فأردف الطفل بلمحات وجهه البريئة:

– ولماذا.. أهو لا يحس أصلاً؟

فارتبك المرشد قليلاً، وتوزعت نظراته فى المكان، ثم قال واثقاً مبتسماً:

– بالتأكيد يحس، لكنه لا يحس بمثل هذه الضربات الصغيرة، إنه ملك عظيم ولا يحس إلا بالآلام العظيمة.

فقال الطفل وفى عينيه بريق الاستنتاج:

– إذن هو يحس بنا؟

فاستمر المرشد بابتسامته قائلاً:

– بالتأكيد يحس بنا.

فقال الطفل بصوت بائس:

– بما أنه يحس بنا، لماذا هو صامت هكذا.. أيعجبه حالنا إذن؟!

فصمت المرشد كما التمثال خلفه تماماً، ولم يعرف ماذا يقول، بل وأحس بالخطأ الذى ارتكبه من البداية وصعقت الحيرة كل الموجودين في المكان، وتقدم رجل كان يقف بجانب الطفل حتى وصل إلى المرشد، وقال له بصوت

منخفض: "أيها الأحمق!" ثم رجع للطفل وقال له:

– لا.. إنه لا يحس بنا أصلاً.. إنه مجرد تمثال حجرى لا يسمع ولا يرى ولا يحس.

فزجره رجل خلف الطفل قائلاً:

– كيف تقول ذلك لهذا الطفل إنه مجرد أحجار.

فكثر الكلام وتعالت الأصوات واحتدم النقاش ولم يسمع منه الطفل شيئاً إذ أخذته أمه واتجهت به إلى المخرج.

بعد قليل هدأت الأصوات، تفرق الجمع وعاد السكون مرة أخرى إلى المتحف وأمام التمثال، عندها انثنت ركبتا الملك بعانخي وهبطتا على الأرض بعد آلاف السنين من الجمود، وتفتحت عيناه عن دموع لم تتعود الهطول من قبل، وعادت الحياة إلى جسد لم تكن لتعود إليه لولا أسئلة بريئة أطلقها طفل صغير.

تعجل مسح دمعاته ورفع رأسه ليرى المكان الذي احتواه كل تلك السنين، تلفت عن يمينه وشماله، أمامه وخلفه ولم يفهم شيئاً ذا قيمة، ظنه سجناً فى البداية، ثم لما رأى كل تلك الآثار من مملكته أدرك أنه ربما فى حاله مرضية وأنه يتجول فى عقله، لكنه رفض هذه الفكرة حين رأى

تجول الغرباء، تكاثرت الأسئلة في ذهنه فأخذ يتمشى، وحين رأى باباً يدخل منه أولئک الغرباء أخذه فضول شديد لما وراءه وأراد دخوله ولم أستطع تصنيفه حينها، أهو دخول إلى الخارج؟ أم خروج إلى الداخل؟

خرج بعانخي إلى فناء المتحف المليء بالأشجار وبعض الآثار والتماثيل الكبيرة، تفاجأ فى بادئ الأمر بأشعة الشمس وحاول الاحتماء منها لكنه لمس فيها دفئاً ثم تأقلماً وحباً، تقدم بين الأشجار إلى أن لمح عاملًا عجوزًا يلملم أوراق الشجر الجافة، تأمل العامل بعانخي جيداً ثم رجع لعمله، احتار بعانخي منه فلم يرمقه أحد بمثل هذه النظرة فى طريقه إلى هنا، تقدم نحوه وقال:

– هل تعرفني؟

فابتسم العامل بملامح مجعدة وقال:

– بالتأكيد أعرفک.. الملک بعانخي.

فتهلل وجه بعانخي وقال:

– إذن قل لي أين أنا؟

فقال العامل:

– أنت فى كوش مملكتک القديمة، لكن فى القرن الواحد

والعشرين، أى بعد آلاف السنين من رحيلك.

رجع العامل لعمله وتجعد وجه بعانخي واحتار أيما حيرة ثم قال مرتبكاً:

– كيف ذلك؟!

فقال العامل وهو منهمك فى عمله: "لا أعرف".

فقال بعانخي:

– وما هذا المكان؟

فقال العامل:

– أنت فى متحف، وهو مكان تعرض فيه التحف التاريخية، أمثالك يعني.

فازداد وجه بعانخي حيرة وقال:

– وماذا تعني بالتحف؟

فقال العامل بلا مبالاة وهو يواصل عمله:

– التحفة هي أثر تاريخي يدل على حضارة أو وقت معين، وقد تكون قطعًا فخارية، حُليًّا، تمثالا مثلك.

فتجهم وجه بعانخي وقال:

– أنا لست تمثالاً، أنا الملك بعانخي، مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين وملك ملوك كوش.

فقال العامل:

– حسناً هذا فى الماضي، وأما الآن فأنت لست سوى تمثال يأتى الزوار ليتفرجوا عليك فى أوقات فراغهم.

– لا.. أنا لست كذلك أيها العجوز الأحمق، ستراني وأنا أستعيد ملكي.

فقال العامل بعد أن انتصب واقفاً:

– أي ملك ذاك الذى تريد استعادته؟ أنت لا تملك نفسك حتى.

استغرب بعانخي من العامل ثم قال بصوت منخفض:

– ولكن هل هذا عادي ألا تتعجب لظهوري من جديد بعد آلاف السنين؟

ضحك العامل ثم قال:

– إننا فى عصر يمكن أن يحدث فيه أي شيء، فهذا زمن العجائب ذاته، قبل ثلاثين سنة جئت زائراً هذا المتحف وتمنيتك لو تصحى، وأما الآن فصحوك وعدمه سيان.

اندهش بعانخي مردداً بينه وبين نفسه..“مجيئى مثل عدمه، كيف ذلك؟!” ثم قال:

– كيف حال أحفادي؟

– بسيطون يحلمون بأشياء بسيطة، كأن يصبحوا مثلي ومثلك.

فتعجب بعانخي وقال:

– يريدون أن يصبحوا ملوكاً؟!

فقال العامل:

– لا.. بل عمال فى متحف.

فعلا صوت بعانخي قائلا:

– عمال؟! لا.. أحفادى ليسو إلا ملوك الأرض، سأذهب وأرى الوضع بنفسي.

تهلل وجه العامل وقال:

– هذا جيد.. حسناً.. خذ ملابسي هذه واذهب.

فقال بعانخى مستغرباً:

– ولماذا فرحت هكذا؟

– سأعرض لمدير المتحف الوقوف فى مكانك مقابل 50 جنيها فى اليوم!

ولم يفهم بعانخى شيئًا، ولم يمهله العامل لما تعجل الذهاب، فلبس ملابسه ومضى حتى خرج من المتحف.

بدا الأمر غريباً له، بل بدت وكأنها أرض العجائب كما

قال العامل، أجسام وربما هي دواب تجري بسرعة على شريط أسود، أرجل غادية وأخرى رائحة مهمومة الوجوه، مبان شديدة الضخامة والعلو تفوق أهرامات مملكته القديمة، وكاد أن يفقد بوصلة داخلية فى نفسه حين أصابه دوار من كل هذا، إلى أن نجدته رائحة هو يعرفها أكثر من أي شيء آخر ويحفظها جيداً، رائحة النيل الذى يقف هو الآن على شطه، لم يجده غريباً مثلما الأشياء حوله، حينها لمعت أشياء فى نفسه ووجدت براهينها، وأيقن بثبات المكان وما هذه الأشياء سوى حيلة الزمن وصبغته فى تدرجه. تقدمت خطواته على طول الشط حين أصابه شيء من الفرح معتزًا بتطور الأحفاد ومطمئناً جزئياً على حالهم وكيف يمكن أن يكون بأفضل من ذلك، جلس على إحدى مقاعد بائعة شاى تحت شجرة جميز كبيرة بجوار أحدهم وألقى عليه السلام فرد عليه:

– أهلاً!

– كيف الحال؟

– بخير الحمد لله.. وأنت كيف؟

– بخير.. لقد نظرت فى حالكم وقد وجدته عال العال.

– ماذا تقصد؟!

– أعني لقد وجدت أن الشعب فى رفاهية ونعيم.

فتعجب الرجل وقال:

– هل أنت مسؤول؟

– لا.. أنا بعانخي.. الملك.

– ماذا تقصد بالملك؟!

– أنا بعانخي ملك ملوك مملكة كوش.

فاحتار الرجل وظنه مجنوناً فى بادئ الأمر ثم ظن أنه أحد الأثرياء البلهاء ربما فقال له:

– كويس سيبک من أنک شنو، كيف عرفت الشعب عايش فى رفاهية؟

– لقد عرفت، انظر لما حولک، هذه المباني، هذا الشاطئ الجميل، هذه المراكب والجسور وكل هذه الابتسامات على وجوه الناس.

فقال الرجل وابتسامة بلهاء يتيمة على وجهه:

– ديل مسؤوم زيک كدا.. يجو الشارع السمح دا ويمشو يقولوا الشعب مرتاح.. يا زول نحن هسه فى قلب العاصمة أمشي شوف الأطراف.. ساكت شوف العشوائيات..

شوف القرى والأرياف.. وكان بقت على الابتسامات الفي الوشوش.. فهي زي البسمة العبيطة الهسه فى وشى دي!!

تحرك الرجل من مكانه ومضى وهو يلعن ويلعن ويلعن، ولم يفق بعانخي من حيرته إلى أن رأى بائعة الشاى تطارد الرجل لأجل أن يدفع قيمة كأس الشاي، هز رأسه قليلاً ثم أخذ نفساً عميقاً طارداً به أوهاماً من رأسه مسترجعاً هيبة الملوك التى برقت في عينيه، مؤمناً بأحفاده الذين لابد وأنهم أفضل من ذلك الكلام الذي قاله هذا الرجل ومن قبله عامل المتحف، لكنه وللأسف وبعد ثلاث ساعات بالضبط وبعد أن تجول في أنحاء المدينة لبعض الوقت أسند ظهره لأحد الجدر مستظلاً به وعلى وجهه بؤس ليس بأقل من البؤس على وجه الرجل عند ست الشاي أو على وجه عامل المتحف من قبله.. فأين تجول وماذا رأى؟

قرر أن يتفحص الأحوال تفحصاً دقيقاً شاملاً، متجاوزاً بسمة الوجوه تلك البلهاء – كما قال الرجل قبل قليل – ولا تعكس ما في قلوب الناس من هموم، ركب البص المزدحم بالركاب حتى الباب، وانتهي المشهد بإنزالهم فى وسط الطريق هو وثلاثة آخرون لأنهم ليس لديهم ثمن التذاكر،

وجد نفسه فى رصيف مكتظ بالمارة والشحاذين يطل البؤس من عيونهم وأيديهم الممدودة، صِبية فى مقتبل العمر لا يجوز أن يكونوا إلا في المدرسة، وجدهم هنا يبيعون الماء والليمون وغيره ويمسحون الأحذية نظير مبالغ زهيدة مشردين لا فرق بينهم وبين جمادات المكان، طاف على المساكن الشعبية فى المناطق الطرفية والبيوت المهدمة والمرقعة كجلباب فقير، بكاء الأطفال، خوار الحنفيات بلا ماء، كوارث الأقاليم، المآسي على صفحات الصحف، المجاعات، الحروب، معسكرات الجوع والمرض، اتساع الخروق على قدرة وحكمة الراتقين، احتراق الأشجار بفعل الحرب، ضياع المروءة بين أرجل الفتن، تصدير السكر والبترول واستيراد عقوبات أمريكا، تهديد، وعيد، تساءل بعانخي بينه وبين نفسه: "ترى ما هي أمريكا؟ كيف يعطش الناس فى بلد يشقه النيل؟ كيف يجوع الناس فى بلد ينمو فى كل أرضه الزرع؟ كيف يتسول الناس فى بلد كريم؟ وكيف يذلون فى مهد حضارات قديمة؟!

زار فيما زار مهد حضارة كوش القديمة، جبل البركل والأهرامات، تأكد حينها أنها لا تزال مجرد آثار كما قال

عامل المتحف العجوز، وعلى ذلك الجدار الذى استظل به أدرك حجم المشكلة التى يعاني منها أحفاده، ومدى ابتعادهم عن حضارة من المفترض أنهم ورثوها ولا يعرفون الآن حتى قائدها المؤسس الذى يتجول بينهم، فترامى إلى سمعه صوت من بعيد يردد كل حين وآخر "بعانخي.. الملك بعانخي" هنا حدقت عيناه وأرهف سمعه لكي يحدد مصدر الصوت فإذا هو يأتي من خلف الجدار الذى يستند عليه، قفز من أعلى الجدار ودخل فإذا هي مدرسة، تقدم إلى تلك الغرفة التى يأتي منها الصوت ونظر إليها من النافذة ليرى رجلاً يخاطب أولاداً ويقول: "كان ملك نبتة ومملكة كوش، مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين، طموحاً منذ تصويت الكهنة له ملكاً ثم تتويجه، عمل على توسيع مملكته وأقسم بعدها على ضم مصر فخضع له حكامها، واستمر الكوشيون في حكمها لخمسة وسبعين عاماً، كان بطلاً زعيماً حكيماً، في ساحات الوغى ومفاوضات السلام، والآن نحن نفتقد هذه الصفات، نحن نحتاج لأن تتبعث فينا روح البطل من جديد".. تهلل وجه بعانخى: "أخيراً وجدت شخصاً يعرفني ويدرك قيمتى ويحدث بي"، ثم انتظره ليخرج

من الغرفة واعترض طريقه قائلاً:

– شكراً لك أيها الرجل!

– لماذا؟!

– أعدت لي الأمل..

– أي أمل؟!

– أنا بعانخي الذى كنت تتحدث عنه!

فامتلأت عينا الأستاذ بالدهشة والاستغراب، استغراب فهمه بعانخي، في تلك الأثناء طلب منه الأستاذ أن يتفضل معه لمكتبه، وهناك حكى بعانخي للأستاذ حكايته منذ استيقاظه وخروجه من المتحف.

تجعدت ملامح وجه الأستاذ قليلاً، وأخذ نفساً عميقاً، وأمسك بكتاب، صار يقلب صفحاته بقلق ثم قال:

– حسناً، وماذا تريد؟

– ألا تصدقني؟

– أصدقك!.

– إذن أنا البطل الذى تحدثت عنه قبل قليل لتلاميذك.

فرمقه المدرس بنظرة مكثفة، ثم أشاح ببصره عنه ونهض فجأةً وقال:

– اسمع يا بعانخي، نحن لا نحتاج أبطالاً يتجولون فى الشوارع ويعرّفون بأنفسهم، لدينا آلاف من أمثال هؤلاء، نحن نريد أبطالاً حقيقيين يقودوننا، يكونون فى الطليعة، في المقدمة، حتى يستطيعوا وقتها السكن فى كل الأمكنة، ثم أخذ الكتاب ووقف قبالة النافذة وأردف:

– كتب التاريخ مليئة بالأبطال يا بعانخي، ولكنها للأسف صارت مجرد قصص جميلة تحكى!

– لا.. أنا هنا وسأثبت نفسي.

فالتفت له المدرس باستغراب:

– كيف؟

– سأستعيد صولجانى وتاجي ومجد هذه الأرض.

فقال المدرس:

– ليتها بتلك السهولة!

ثم خرج.

هام بعانخي بعد أن خرج من المدرسة فى شوارع متشابكة، تعصف به الحيرة وقد انتصبت عروق جبينه: "كيف يكون الأمر معقداً ما دام فى اليد سلاح وفى العروق دماء وفى الوقت فسحة للعقل؟" ارتبكت عيناه حين رأى رجلاً عجوزاً

يجلس على كرسي أمام باب بيته، أدرك أنه رآه من قبل، اقترب منه وألقى عليه التحية فردها، تتبع بعانخي تجاعيد فى وجه الرجل وعيوناً خلف نظارة سوداء وقد كسا الشيب شعره، انتفض حينها قائلاً:

– نعم تذكرتک.. إنک دائم الحضور للمتحف وكثير المكوث فيه وتقضي أكثر الوقت تتأملني، أليس كذلک؟

– تقطب وجه العجوز أكثر وقال:

– ومن أنت؟

– أنا بعانخي.

ضحک العجوز مستهزئاً، فقاطعه بعانخي قائلاً في غضب:

– ألا تراني، أنا بعانخى بعينه.

فقال الرجل بصوت هادئ:

– صحيح.. إننى دائم الإتيان إلى المتحف وكثير المكوث فيه ولكني لا أطيل التأمل فيک، فأنا أصلاً أعمى.

اندهش بعانخى وقال:

– وكيف ذلک؟! ولماذا تأتي للمتحف إذن؟

فقال الرجل بصوت يصعب التكهن بمستوى انفعاله:

– ومن يناسبه المتحف مثلي؟ إننى آتي إلى المتحف لأرى ما لا يراه غيري من الناس، إنني أرى الكمال ذاته، لا أرى الملوك فى هيئة حجارة، وإنما أراهم فى حقيقتهم يمتشقون سيوفهم فى الحرب ويعتلون عروشهم باقتدار فى السلم، إنني لا أرى آثاراً تقول: "لقد كنا يوماً"، ولا أريد أن أراها.

– ولكني أنا الآن أمامك.. بعانخي.

– وهل تفرق عن تلك الآثار شيئاً، تأتى وتقول لي: "أنا بعانخي"، العظماء لا يعرفون أنفسهم.. فإذا كانوا عظماء لا يحتاج الأعمى لبصر حتى يراهم.

تقاذفته الشوارع، شاكه الرصيف، أحس بوخزات الأسئلة فى قلبه وفراغ الإجابات، امتلأ صدره بالغضب وفرغ، امتلأ وفرغ، أحس بشيء ما يدغدغه حين رأى مظاهرة لمجموعة من الشباب، ثم رآها تتلاشى على أيدى الشرطة، أحس بمظاهرات صامتة فى كل قلب وحجر وجدار، لكنها لا تقوى على الظهور، بدأ يفهم كيف أن الأمر معقد مثلما قال الأستاذ، ولماذا يهرب العجوز الأعمى لخياله، "لكنني بعانخي" قال: "ما احترفت يوماً لعبة الخيارات، ولم يكن

وطني حلماً، وبالتالي تبقى مسألة استعادته ممكنة"، قرر الذهاب للمتحف لاستعادة تاجه كأول خطوة في طريقه الطويل لاستعادة ملكه ومجد الأرض.

كانت الشمس تتأهب للنزول إلى ما تحت الأفق، وفي قلبها صبح قريب قادم لهذه الأرض، صبح لم يكن ليأتي فى ذهن بعانخي إلا بعد هذا المشوار الأخير إلى تاجه ومجد سيعود، وأما هذه المرة كان الطريق واضحاً، محددة معالمه حتى المتحف ثم صعدت خطواته المتلهفة الأدراج عابرة غرفة الاستقبال لتوقفه موظفة الاستقبال وهي تنظر له بطرف عينيها وهي مشغولة بتجميع أوراق أمامها قائلة:

– معليش...قفلنا!!

تكونت فى وجهه نظرة تفيد عدم الفهم! فأعادت الكلام قائلة بعد أن توقفت يداها عن الانشغال:

– قفلنا.. تعال بكرة الصباح!

"للوهلة الأولى عندما سمعتُ هذه الأربع كلمات أعجبتني رنتها الموسيقية، صيغتها الموزونة، إشباعها لرغبتي الفنية الحادة، مواساتها لوجع لحظي عميق، بساطتها المتقدة، حروفها المستقرة على مهل، تماشيها مع كل الألحان والواقع

والأمل، أي براعة تملكها تلك الموظفة والموقف لتخرج من رحمهما هذه النقائض المتجانسة؟؟ قفلنا، "قفل" فعل ماض آثم و"نا" ضمير ولكن ضمير من؟ ضمير من ذلك الذى سمح بكل هذه المهازل وعزل التاريخ عنا بهذه الكيفية؟ كيف استطاعت تلك الموظفة البسيطة أن تتكلم وفى لحظة فقط باسم كل القبح الذى بداخلنا وداخلهم؟ وكيف تشمل كل هؤلاء فى نون بسيطة.. (تعال بكره الصباح) من تقصد بتعال يا ترى؟ ومن سيأتي؟ ومن سينتظر؟"

انزعج بعانخي حد الغضب، ثم اقترب من الموظفة وقال:

– أنا بعانخي ألا تعرفينني؟ لقد جئت أريد تاجي لكي أنقذ هذه الأرض مما تعاني.

فقاطعته بصوت صارم ونظرة حادة "أخ بعانخي".. فقال: "نعم".. فقالت له: "قفلنا.. أمشي وتعال بكرة الصباح".

وحين استيقن ألا سبيل، عاد من الباب مهزوم النظرة خاضعًا لترويض تلك الأحرف، مستسلمًا تأكله الحيرة، وهنا كان لقائي ببعانخي.

كنت أنا وصديقي فى نزهة حين اقترحنا أن ندلف على المتحف القومي، تنحينا عن الشارع متوجهين صوب مدخل

المتحف، عندها قابلنا بعانخي تتدلى خطاه الأدراج حائرة مستسلمة، انتابتني أحاسيس مختلفة حين لمحت وجهه، أحسست بأن هذه أول مرة أمر بها من هذا الشارع رغم أني مررت به مئات المرات من قبل، وأحسست فى داخلي صورة كاملة لواقع جديد يتشكل، لم تشغلني أسئلة مثل "كيف أتى؟"؛ فخليط من العجز والأحلام أخفيا تلك الأسئلة عن بنود اللحظة الحاضرة وجعلاني أردد فى سري "بعانخى.. بعانخي" وعرفت أنني قلتها جهراً، حينها رفع رأسه ناظراً نحوي، كانت استجابة ملامح وجهه لندائي هذه المرة أخف من استجابته من قبل، لعامل المتحف مثلاً أو لأستاذ التاريخ، ربما أدرك جزئياً أن هذا الأمر – أى معرفتى له– لا تغير شيئاً، سلم علينا سلاماً قيماً وقال:

– لقد قالت – تلك الموظفة عند المدخل – (قفلنا) ولم تسمح لي بالدخول.

فرآنا نحتار أكثر، عندها قص علينا قصته منذ أول اليوم، فكانت ردة فعلي أن أسرعت نحو الباب راجياً من الموظفة أن تسمح لبعانخي بالدخول، وأنه جاء لاستعادة تاجه وأنه وأنه.. ولكني رجعت أجر أذيال الخيبة.. ثم أجلستنا

الظروف وأمل المؤانسة ثلاثتنا بعانخي وصديقي وأنا فقال بعانخي:

– حسناً.. لماذا جئتم أنتم للمتحف؟

فقال صديقي:

– لأصارحك القول، لقد كان مجرد اقتراح منذ تلك الشجرة حين لمحنا باب المتحف فقط لحب الاستطلاع وملء الفراغ.

وأردفت أنا:

– وليس نحن فقط، بل أغلب زوار هذا المكان يأتون لمثل هذه الأسباب، انظر لذاك الشاب وتلك الفتاة مثلاً، يأتيان ليخدعها أنه مثقف وما إلى ذلك.. ليحجز مكاناً فى قلبها، وهي تطاوعه فى كل ذلك لأسباب تخصها، وآخر يأتي ليقوم بإضافة بعض الدرجات للبحث الذي يعمل على إعداده بطلب من الجامعة، وثالث لسد وقت الفراغ، أو لالتقاط بعض الصور التذكارية، وتلك الموظفة تجمع أموال تذاكر الدخول وذلك هو الشيء الوحيد الذي يهمها، أقترح أن يسأل الزائر عن سبب زيارته للمتحف فإن كان تافهاً مثل هذه الأسباب يطرد على الفور.

فقال صديقي:

– حينها لن يدخل أحد المتحف.

فنهض بعانخي غاضباً وقال:

– الآن وعيت جيداً سؤال ذلك الطفل "أيعجبه حالنا إذن؟" ثم مشى نحو الباب هذه المرة مصمماً على الدخول، مؤمناً بأنه لا خيار آخر، حينها تجمع حُراس المتحف أمامه وضج المكان وارتفعت الأصوات، لمحت حينها بائع التسالي أمام المتحف هامساً لصديقي:

– كل يوم بشوف الناس بتدخل هنا وبتمرق، وزي ما بتدخل زي ما بتمرق، وهسه الزول دا حالف يدخل وهم رافضين، هو جوه هنا فى شنو؟

– أنت ما عارف؟

فقال بائع التسالي محتاراً:

– ما عارف.

فقال صديقي:

– منذ متى وأنت تبيع التسالي في هذا المكان؟

– يعني بمشى وبجي من تلاته سنة كدا!

سلم صديقي نفسه للتفكير فى الإجابة ولم يفكر كثيراً

حينها قال:

– في الداخل هنا يوجد...

ثم صمت.. واستدرك قائلاً:

– يوجد...

ثم صمت.. لم يعرف ماذا يقول لبائع التسالى، ثم عند صمته بعد كلمة يوجد الثالثة سأله البائع مندهشاً:

– ماذا يوجد؟

فطرح هذه المرة صديقي السؤال على نفسه، وقال قبل أن تهرب خطواته بعيداً عن بائع التسالي:

– لا يوجد شيء!

باءت محاولات بعانخي بالفشل في دخول المتحف وقال:

– يبدو أن عليّ انتظار الصباح حتى أدخل، صحيح.. متى يأتي الصباح؟

وفي تلك اللحظة تقاسم الصدى سؤاله ونشره فى الأفق، فتردد صدى السؤال فى كل مكان: "متى يأتي الصباح.. الصباح الصباح الصباح" إلى أن وصل إلى مسمع ذلك الطفل الذى أعادت أسئلته بعانخي إلى الوجود، وكان نائماً فانقلب على جنبه الآخر (متى يأتي الصباح؟).. كان سؤالاً

ماكراً كما الواقع، حاداً.. لزج الحواف، تهربنا أنا وصديقى عن إجابته فبدا يأس عظيم يرتسم على وجه بعانخي، وبدا ذلك واضحاً حين وقف أحدهم أمامه مندهشاً جاحظ العينين ثم قال:

– من أنت؟

أخذ بعانخي نفساً عميقاً، ثم قال:

– أحمد.. علي.. أى اسم شئت!

عرفت حينها كم هو سيئ واقعنا الذى قاد عزيمة بعانخي لكل هذا التراجع.. وأدركت عظم المصيبة فهرعت نحوه صارخاً:

– لا يا بعانخي.. لا ينبغي أن نتخلى عن أسمائنا.. لا يجب أن ننساها.. فإننا لا نملك فى يدنا غيرها.

اشتدت حلكة الليل، مللنا من تمشيط الشوارع، طرأ سؤال آخر تناقلت الأشياء صداه "أين ينام بعانخي.. بعانخى بعانخي؟ حتى وصل الصدى لذلك الطفل فانقلب على جنبه الآخر، وعند الصباح وقبيل شروق الشمس بلحظات لم نكن حاضرين، لتنتشر أسئلة الغياب فى كل الاتجاهات "أين صديقى؟ أين أنا؟ أين بعانخي؟" ويتناقل الصدى

"بعانخي بعانخي بعانخي" حتى يصل الصوت متآكلاً.. لذلك الطفل فيصحو من النوم وينهض محدقاً نحو الشمس وهي تبزغ شيئا فشيئا من الأفق.

الفهرس

غنماية آسيا.. ..... ٣

هل حلم «أبو الزنان» بالحرية مرة ١٢
أخرى بعد وقوعه فى أيدينا؟!

الشط الميت ١٨

التمثال ٢٦

لماذا تركني سايروس؟ ٣٧

موعد الساعة التاسعة ٤٤

انحناءة الصيف الأخير ٥٠

رقصات على المحك ٥٤

شتلة صغيرة ٧٠

رسالة التبغ ٧٣

عندما علِق كيس البلاستيك ٧٤
بشجرة السدر!

عندما انقطعت «نبلتي».. ..... ٧٧

جعران.. ذو حالة خاصة جداً! ٨٣

الحنين إلى الريح ٩٣

ليست كالقمر ٩٨

حبات من مسبحة الوطن ١٠٣

بعانخي..»خارج المتحف» ١١٣

" توقفت الدنيا في لحظة.. عندما علق كيس البلاستيك بشجرة السدر، لم يكن المسكين يدري بأن شجرة السدر ستوقف إنتمائه للريح وامتهانه السمو، لم يكن يعلم أنها ستسقط مشاغباته عن ذاكرة الأشياء، لم أكن أعلم أن باستطاعة شجرة السدر إيقاف دوران الأرض ولا إسقاط الدليل الوحيد على كرويتها.."